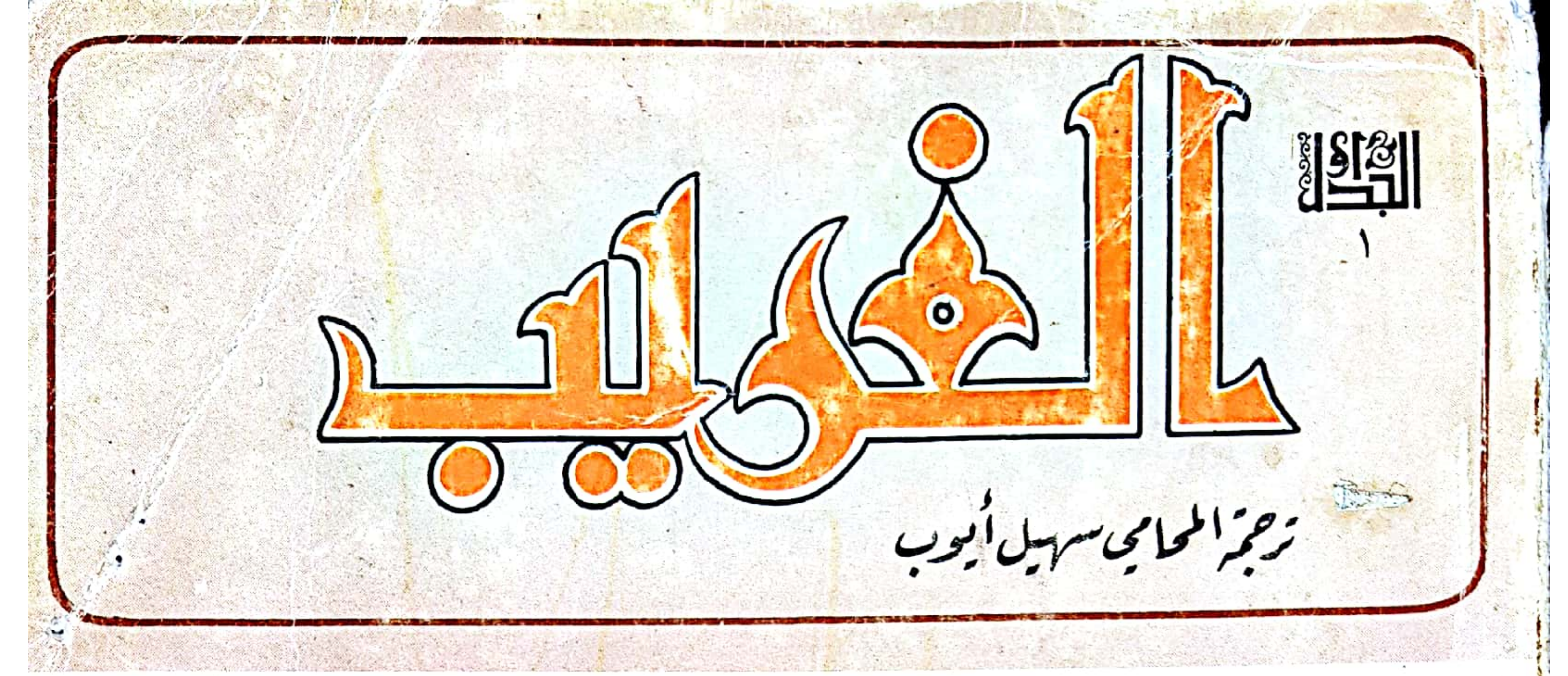


ألبير كامو

الغريب



ألبير كامو

الغريب

ترجمة

المحامي سهيل أيوب



— ١٩٨٠ —

صمم الغلاف : أحمد المفتي

القسم الأول

١

ماتت أمي اليوم . أو ربما البارحة . لا أعرف على وجه الدقة . تقول البرقية التي وردتني من المأوى : «توفيت أمك . الدفن غداً . أحرّ تعازينا» . وتركتني البرقية في حيرة من أمري . فقد تكون الوفاة وقعت البارحة .

يبعد مأوى العجزة في مارينغو خمسين ميلاً عن مدينة الجزائر . فإذا ركبتُ باص الساعة الثانية أصل إليه قبل انتشار العتمة . فأقضي الليل هناك أقوم بالصلاة المعتادة إلى جانب الجثمان ، وأعود إلى هنا غداً مساء . وتدبرتُ أمري مع مخدومي فأجازني يومين . لا ريب أنه لم يكن يستطيع أن يرفض ذلك في مثل هذه الظروف . وقد خطر لي أنه تضايق . فقلت له في غير وعي :

ـ أنا آسف ، يا سيدي ، ولكنك تعلم أنها ليست غلطتي .

وتصوَّرتُ فيما بعد أنه لم يكن ثمة حاجة إلى قَوْلَةِ ذلك . فليس ثمة سبب يرغمني على الاعتذار . كان ينبغي أن يقدم لي تعازيه . لربما سيفعل ذلك ، بعد غد ، عندما يراني في ثياب الحداد السوداء . أما في هذه اللحظة فتبدو الأمور وكأن أمي لم تمت حقاً . ولسوف يُثبت الدفن ذلك ، وَيَسِمُهُ بِمِيْسَمٍ رسمي ، كما يقولون ...

ركبتُ باص الساعة الثانية . النهار تتوقّد سمائمه بُعَيْدَ الظهيرة . تناولت طعامي ، على مألوف العادة ، في مطعم سيليست . كانوا ، جميعاً ، لطفاء معي .

قال لي سيليست :

ـ ليس هنالك من يماثل الأم حقاً .

رافقوني إلى الباب عندما ذهبت . كنت تائه الفكر قليلاً ، فقد كان عليَّ في اللحظة الأخيرة أن أمرَّ بمحل عمانويل لأستعير ربطة عنق سوداء وشريطة حزن . فقد سبق أن فَقَدَ عمه منذ شهور قليلة .

كان يجب أن أركض للّحاق بالباص . وأعتقد أن هذه العجلة وما رافقها من انعكاسات الطريق والسماء ، ورائحة البنزين وهزهزة السيارة الكبيرة ، ذلك كله سبَّبَ شعوري بالنعاس . نمتُ طوال الطريق على أية حال . وحينما استيقظتُ وجدتني أستند إلى أحد الجنود . كشر في وجهي وسألني ما إذا كنت قادماً من مكان بعيد ، فأومأت بالايجاب اختصاراً للحديث . لم أكن أشعر بميل إلى الثرثرة .

يبعد المأوى قرابة ميل عن القرية . فاجتزت الطريق على قدميَّ . وطلبت أن يُسمح لي برؤية أمي على الفور . فأخبرني البواب أنه يجب أن أقابل المدير أولاً . ولما كان المدير مشغولاً فقد فُرِضَ عليَّ أن أنتظر قليلاً . وجعل البواب يسامرني خلال فترة انتظاري ، ثم صحبني إلى المكتب . كان المدير رجلاً قصيراً جداً ، أشيب الشعر ، يحمل في عروة سترته وسام الشرف . رنا إليَّ طويلاً بعينيه الزرقاوين النديانتين . وتصافحنا ، فأمسك بيدي فترة مديدة في يده مما أربكني . وقلب بعدُ ذلك صفحات ملف على منضدته ، وقال :

ـ دخلت السيدة ميرسو المأوى منذ ثلاث سنوات . لم تكن لها موارد خاصة ، بل كانت تعتمد عليك كلياً .

خيِّل لي أنه يعيب عليَّ شيئاً ، فبدأت أشرح له الأمر . ولكنه قاطعني قائلاً :

ـ ليس عليك أن تبرِّرَ نفسك ، يا ولدي . قرأت الملفَّ ، ووضح لي أنك لم

تكن في وضع يسمح لك أن تعنى بها بصورة منتظمة . كانت في حاجة إلى شخص يلازمها طوال الوقت ، وأمثالك من الشبان لا يقبضون من أعمالهم رواتب ضخمة . وعلى أية حال ، فقد كانت أكثر سعادة هنا في المأوى .

قلتُ :

ـ أجل ، يا سيدي . واثقٌ أنا من ذلك .

فأضاف :

ـ أنت تعلم أنه كان لها أصدقاء طيبون هنا ، أشخاص من عمرها . والمرء تهنأُ أموره بين أشخاص يماثلونه سناً . أنت شاب ، ولا بدَّ أنك لم تكن تستطيع أن تبقى إلى جانبها طويلاً .

كان ذلك صحيحاً . يوم كنا نعيش معاً كانت أمي تتابعني بعينيها على الدوام ، ولكننا لا نتحادث إلا في النَّدَرَى . وما أكثر ما كانتْ تبكي في الأسابيع الأولى من دخولها المأوى . وكان ذلك بسببٍ من العادة وحدها . كان يمكن أن تبكي أيضاً لو طلبوا إليها بعد شهر أو شهرين أن تغادر المأوى . وكان يمكن أن تتألم أيضاً لهذا السبب ، وهو ما دعاني الى عدم زيارتها ، خلال السنة الماضية بطولها ، إلا زورات متباعدات . كما أن الزيارة كانت تضيّع عليَّ يوم الأحد ـ هذا إذا لم نذكر الجهد في الذهاب إلى موقف الباص ، وقطع تذكرة الركوب ، وتمضية ساعتين كاملتين في طريق الذهاب وساعتين أُخريين في طريق الأَوْبَةِ .

وتابع المدير حديثه ، ولكنني لم أكن أعيره أذناً صاغية . قال لي أخيراً :

ـ أفترض الآن أنك تحبُّ أن ترى أمك ؟

نهضت من غير أن أردَّ عليه ، فتقدمني إلى الباب . وشرح لي على السلَّم قائلاً :

ـ نقلنا الجثمان إلى مستودع الجثث الصغير ـ كيلا نزعج الشيوخ الآخرين . أنت تفهم ذلك . فكلما حدثت وفاة هنا يظل الآخرون ثائري الأعصاب فترة

يومين أو ثلاثة أيام ، وهذا يجعل الخدمة شاقة متعبة بالنسبة الى مستخدمينا من دون ريب .

اجتزنا ساحة كان فيها جمعٌ من الشيوخ يثرثرون في حلقات صغيرة . جنحوا إلى الصمت ونحن نمرُّ بهم ، وما لبثت الأحاديث أن استؤنفت بعد ابتعادنا . ذكرَّتني أصواتهم بأصوات ببغاوات في قفص ، لكن النبرة لم تكن حادةً على أية حال .

توقف المدير عند مدخل مبنى صغير منخفض ، وقال لي :

ـ ههنا أتركك ، يا سيد ميرسو . إذا احتجت إليَّ في أمر من الأمور فأنا في مكتبي . نقترح أن يكون الدفن غداً صباحاً . وهذا يتيح لك أن تقضي الليل قرب نعش والدتك ، الأمر الذي لا نشكُّ أنك تريد أن تفعله . لقد علمتُ من صديقات أمك أنها تريد أن تُدفن بحسب الطقوس الكنسية ، فتدبَّرْتُ كل ما هو ضروري . ولكنني أردت أن أُبلِّغك ذلك .

أجزيت له الشكر . ان أمي لم تفكر في الدين في حياتها قط ، على حدِّ علمي ، رغم أنها لم تكن ملحدة .

دخلت مستودع الموتى . الغرفة مشرقة جداً ، نظيفة ، مطلية الجدران بلون أبيض ، ومسقوفة بالزجاج . وكان أثاثها عبارة عن عدد من المقاعد والمساند الخشبية . وكان ثمة مسندان في منتصف الغرفة وضع النعش فوقهما .. النعش مغطىً ، لكن براغيه ليست مشدودة مما جعل رؤوسها اللماعة تبرز فوق الخشب ، وهو من شجر الجوز الأسود المصبوغ . وكان ثمة امرأة عربية ، أظن أنها ممرضة ، تجلس إلى جانب النعش ، تلبس قميصاً أزرق ، وتلف شعرها بمنديل مزخرف .

دخل البواب ورائي في تلك اللحظة . لا بدَّ أنه كان يركض ، فهو مبهور الأنفاس قليلاً . قال :

ـ لقد وضعنا الغطاء ، لكنهم أمروني أن أرفعه عندما أتيت ليتاح لك رؤيتها .

وفيما هو يقترب من النعش رجوته ألا يتعب نفسه ، فسأل :

ـ ماذا ؟ ما هذا ؟ ألا تريدني أن ؟...

فأجبت :

ـ لا .

فأعاد مفك البراغي إلى جيبه ، وحدَّق في وجهي . أيقنت عندها أنه لم يكن يجب أن أقول لا ، فارتبكت .

سأل ، بعد أن رنا اليَّ فترة من وقت :

ـ لماذا ؟

لم يكن في نبرته شيء من عتاب . إنه يريد أن يعرف لماذا بكل بساطة . أجبت :

ـ حسناً ، لست أدري حقاً .

شرع يفرك شاربه الأبيض ، ثم قال لي في لطف من دون أن ينظر إليَّ :

ـ لقد فهمت .

إنه جميل الطلعة ، عيناه زرقاوان ، وخداه متوردان . جرَّ مقعداً إلى قرب النعش ، وجلس خلفي تماماً . نهضت الممرضة ، وتحركت صوب الباب . وفيما هي تمرُّ بنا همس البواب في أذني :

ـ إنها تشكو ورماً ، هذه المسكينة .

تطلعت إليها في شيء من التدقيق ، فرأيت أنها تلف رباطاً حول رأسها ، تحت عينيها مباشرة . كانت الربطة مسطَّحةً على جسر الأنف . ولم يكن يُرى في وجهها غير بياض تلك الربطة .

وما أن ذهبت حتى نهض البواب ، وأعلن :

ـ سأتركك الآن وحدك .

لا أدري ما إذا كنت أتيتُ حركة جعلته يقف خلف مقعدي بدلاً من أن يتابع طريقه .. يزعجني إحساسي بوجود إنسان خلف ظهري . كانت الشمس تتطفّل ، والغرفة تعجُّ بآخر شعاعات المساء الحلوة ، وزنبوران يطنّان في الأعلى عند الزجاج . وكنت أحسُّ أن النعاس يمتلكني فأعجز عن فتح عينيَّ . سألت البواب من غير أن ألتفت إليه عن الزمن الذي قضاه في المأوى . فردَّ عليَّ في الحال كمن ينتظر سؤالي منذ زمن طويل :

ـ خمس سنوات .

أطلق سؤالي عقال ثرثرته . لو أن أحدهم أخبره قبل عشر سنوات أنه سينهي أيام حياته بواباً في مأوى مارينغو لما صدَّقه . هو في الرابعة والستين من عمره ، وهو باريسي على ما أنهى إليَّ .

قاطعته مستوضحاً دون تفكير :

ـ آه ، أنتَ لستَ من هنا ؟

وتذكرت أنه حدثني عن أمي قبل أن يصحبني إلى المدير . قال لي إنه يجب أن ندفنها في أسرع وقت لأن الحرَّ شديد في هذه النواحي ، وخاصة في السهل . «في باريس يبقون الجسد ثلاثة أيام ، وأحياناً أربعة» . وأبلغني بعد ذلك أنه قضى أجمل سنوات حياته في باريس ، وأنه يجد صعوبة في نسيانها . وقال :

ـ أما هنا فليس لديهم وقت ، فهم لم يخلقوا لفكرة أنه يجب أن يركضوا خلف عربة الموتى .

قالت له زوجه :

ـ صمتاً ، فهذه أشياء لا يجدر أن تُردَّد على مسمعيّ السيد الشاب المسكين .

فاحمارَّ الرجل العجوز وانهمر يعتذر . أخبرته أنْ لا بأس عليه . كنت أجد أن ما يقوله صحيح ومفيد ، فأنا لم أفكر فيه من قَبْلُ على الإطلاق .

وتابع حديثه فروى لي أنه دخل المأوى كنزيلٍ عادي . ولكنه كان يحسُّ أنه سالمٌ معافى ، فعرض نفسه لشغل منصب البواب عندما شغر هذا المنصب .

ألمحت أنه كان ، في نهاية الأمر ، نزيلاً عادياً كالآخرين . ولكنه رفض هذا التلميح . إنه أشبه «بمستخدم مسؤول» . وقد دهشتُ قبلاً للطريقة التي يقول فيها «هم الآخرون» ، ونادراً جداً «هم الشيوخ» ، وهو يتحدث عن النزلاء الذين لم يكن بعضهم يكبره سناً . أكيد أن الأمر لم يكن واحداً . كان هو بواباً ، وكانت له عليهم حقوق على شكلٍ من الأشكال .

دخلت الممرضة في تلك الأثناء . كان الليل قد هبط سريعاً ، وعلى حين فجأة ، والسماء تزداد حلكة فوق زجاج السقف . ضغط البواب زر الكهرباء فبهرتني دفقات الضوء .

دعاني إلى غرفة الطعام لأصيب شيئاً من العشاء . ولكنني لم أكن جائعاً . فعرض عليَّ عندئذ أن يأتيني بفنجان من قهوة بالحليب . كنت أحب القهوة بالحليب كثيراً ، فقبلت شاكراً . ورجع بعد فترة يحمل طبقاً . شربت القهوة ، فأخذتني رغبة في التدخين . وترددت ، لأنني لم أكن أعرف ما إذا كنت أستطيع أن أفعل ذلك في حضرة والدتي . فكّرت في الأمر ملياً . لم يكن لهذا الأمر أية أهمية ، وهكذا قدمت لفافة للبواب وقعدنا ندخن .

شرع يحادثني من جديد :

ـ أنت تعرف أن أصدقاء والدتك سيأتون بعد قليل للقيام بمراسم الصلاة . إنها العادة هنا عندما يموت إنسان . يحسن بي أن أذهب وأُحضر عدداً من المقاعد وإبريقاً من القهوة السوداء .

كان انعكاس النور على الجدران البيض يرهق عينيَّ ، فسألته عما إذا كان في مقدوري إطفاء أحد المصابيح . قال لي إن ذلك ليس ممكناً . فقد كان تركيب الكهرباء مصنوعاً على هذا النمط ، فإما المصابيح كلها أو لا مصباح

على الإطلاق . ولم أعره كثيراً من انتباهي بعد ذلك . خرج ، ورجع يحمل عدداً من المقاعد صفّها حول النعش . ووضع على أحدها إبريق القهوة وحوالي دزينة من الفناجين . ثم جلس قبالتي ، من الجهة الأخرى من أمي . وكانت الممرضة في الطرف الآخر من الغرفة قد أدارت ظهرها لي . لم أكن أرى ما كانت تفعله . ولكنني خمّنتُ من حركات ذراعيها أنها تشتغل بالصوف . كان الطقس لذيذاً ، والقهوة قد أدفأتني ، ورائحة الورود وأنفاس هواء الليل الرطيب تتسلل من الباب المفتوح . وأعتقد أنني غفوت قليلاً .

أيقظني بعد ذلك حفيف غريب في أذنيَّ . أحسست بعد أن أغلقت عينيَّ أن الضوء في الغرفة ازداد قوة عنه قبلاً . لم يكن ثمة أثر للظل في أي مكان ، وكل شيء ، كل زاوية أو انحناء ، يرتسم بصفاء جارح للنظر . إن الشيوخ أصدقاء أمي يدلفون إلى الغرفة . كانوا عشرة ، ينسلّون في صمت في هذا النور الأبيض الذي يعمي . جلسوا من غير أن تصرَّ كرسي واحدة . أبداً لم أرَ في حياتي من قَبْلُ شخصاً بوضوح مثلما رأيت هؤلاء الناس . لم يكن يفوتني أي تفصيل في وجوههم أو ملابسهم . ومع ذلك لم أكن أسمعهم . وكان يصعب أن أُصدِّقَ واقع وجودهم . النساء جميعاً على وجه التقريب يرتدين المآزر ، والأحزمة التي تشدُّ خصورهنَّ تُبرزُ بطونهن المنتفخة . ولم أكن لحظت حتى الآن إلى أي حدّ يمكن أن تكون بطون للعجائز من النساء . وكان أغلب الرجال تقريباً نحيلين كالمدمَّات يحملون العكازات جميعاً . والأمر الذي أدهشني في وجوههم هو أنني لم أكن أستطيع أن أرى عيونهم ، بل أرى بريقاً عاتماً فيما يشبه عشاً من التجاعيد .

تطلعوا إليَّ حين جلسوا ، وهزوا رؤوسهم في خراقة ، ومصوا شفاههم بين لثثهم عديمة الأسنان . لم أستطع أن أعرف إذا كانوا يسلمون عليَّ ويحاولون أن يقولوا شيئاً ، أو أن الأمر لا يعدو مجرد ارتعاش من جراء الشيخوخة . حاولت أن

أفكر أنهم يسلمون عليَّ . وفي هذه اللحظة فقط أدركت أنهم يتملّقون البواب جميعاً ، يحدقون فيَّ في رزانة ، وهم يؤرجحون رؤوسهم من جانب إلى آخر . وراودني للحظات شعور مضحك أنهم جلسوا ههنا لإجراء محاكمتي .

أخذت إحدى النساء تبكي بعد فترة قصيرة . كانت تجلس في الصف الثاني . لم أكن أستطيع رؤية وجهها لأن إحدى صديقاتها جلست أمامها . كانت تبكي في صرخات قصيرة منتظمة فيخال للمرء أنها لن تتوقف أبداً . وكان يبدو على الآخرين أنهم لا يسمعونها . إنهم يجلسون في صمت ، يسترخون في مقاعدهم ، يحدقون في النعش أو في عكازاتهم أو أي شيء آخر أمامهم . ولم يكونوا يرفعون عيونهم عن هذه الأشياء . والمرأة لا تبرح تبكي ، وأنا شديد الدهشة لأنني لا أعرفها . وددت لو تتوقف عن البكاء ، غير أنني لم أجرؤ على مصارحتها بذلك . انحنى البواب نحوها بعد لحظات ، وهمس شيئاً في أذنها ، فهزّت رأسها ، وتمتمت بعض كلمات لم أفهمها ، وواصلت بكاءها على الوتيرة ذاتها .

نهض البواب ، واقترب مني بمقعده . اعتصم بصمته فترة ، ثم قال من دون أن ينظر اليَّ :

ـ كانت مغرمة جداً بوالدتك . وهي تقول إنها كانت صديقتها الوحيدة في الوجود ، وإنه لم يبق لها أحد الآن .

لم يكن لديَّ ما أردُّ به . فخيّم الصمتُ فترة طويلة . كانت تأوهات المرأة وشهقاتها تخفُّ . وكانت تنخر كثيراً . ثم صمتت .

لم أكن أشعر بالنعاس ، ولكن التعب يهدني . كانت ساقاي تؤلمانني كثيراً . وبدا لي الآن أن صمت جميع هؤلاء الناس يرهق أعصابي في تلك الأثناء . وكان الصوت الوحيد الذي أسمعه صوتاً غريباً ، يأتيني في فترات متقطعة طويلة ، فأدهشني ذلك أول الأمر . وعلى أية حال ، فقد توصلت ، بعد

فترة طويلة من الإصغاء ، إلى أن أحزر ماهية ذلك الصوت : إن بعض الشيوخ يمصون باطن خدودهم ؛ ويصعِّدون هذه الأصوات الغريبة الصافرة . لم ينتبهوا الى ذلك لاستغراقهم في أفكارهم . وكان عندي شعور أن هذا الجسد الميت المسجى في وسطهم لم يكن يعني شيئاً في نظرهم . ولكني أعتقد الآن أن هذا الشعور لم يكن غير انطباع خاطىء .

شربنا جميعاً القهوة التي أدارها البواب علينا . ثم لم أعد أذكر شيئاً . وانقضى الليل على شكل ما . وإني لأستطيع أن أذكر لحظة واحدة ، فتحت خلالها عينيَّ فرأيتُ الشيوخ ينامون متكوّمين على مقاعدهم ، باستثناء عجوز واحد يسند ذقنه على يديه المتشبثتين بعصاه ويحدق فيَّ كمن ينتظر يقظتي . واستغرقتُ في النوم من جديد . واستيقظت بعد قليل لأن الألم في ساقيَّ انتشر وغدا أشبه بالتشنج .

كان هنالك لمعان من الضوء على صفحة السماء . ولم تمر دقيقتان حتى استيقظ أحد الشيوخ وسعل مرات كثيرات . وبصق في منديل كبير مزخرف بمربعات . وكلما بصق مرة تصوَّرت أنه يكاد يتقيأ ، الأمر الذي أيقظ الآخرين فأخبرهم البواب أنه آن أوان ذهابهم . نهضوا جميعاً على الفور . كانت وجوههم أشبه بالرماد بعد هذه السهرة الطويلة المتعبة . صافحوني جميعاً مما أثار دهشتي ، فكأن هذه الليلة التي أمضينا سوية دون أن نتبادل فيها كلمة واحدة خلقت فيما بيننا نوعاً من ألفة ومودة .

كنت منهك القوى . فأخذني البواب إلى غرفته حيث هندمت نفسي . وقدم لي قدحاً من قهوة بيضاء خيِّل إليَّ أنها أنعشتني قليلاً . وعندما خرجت كانت الشمس قد نهضت ، والسماء مليئة بالبقع الحمر فوق التلال القائمة بين مارينغو ومنبسط البحر . وكان نسيم صباحي يهبُّ مشبعاً برائحة ملحية حلوة . لم أكن ذهبت إلى القرية منذ زمن طويل ، فألفيت نفسي أفكر في روعة النزهة التي

كان يمكن أن أقوم بها لو لم تكن هنالك قضية أمي .

انتظرت في الساحة تحت شجرة دلب . كنت أتنشق روائح الأرض الباردة فشعرت أنني لم أعد أحسّ بالنعاس قط . ثم فكرت بزملائي الآخرين في المكتب . لا ريبة أنهم يستيقظون في هذه الساعة ويتأهبون للانطلاق إلى العمل . أما بالنسبة إليَّ فكانت هذه الساعة أسوأ ساعات النهار . وجعلت أفكر على هذا الغرار حوالي عشر دقائق ، ثم لفت انتباهي صوت جرس يرنّ في قلب البناء . كنت أرى حركات خلف النوافذ ، ومن بعدُ هدأ كل شيء. نهضت الشمس قليلاً في السماء وشرعت تدفىء قدميَّ . واجتاز البواب الساحة وأخبرني أن المدير يريد رؤيتي . ذهبت إلى مكتبه حيث جعلني أُوقّع بعض المستندات . رأيت أنه يرتدي السواد مع بنطال مخطط . حمل سماعة الهاتف ، وتطلع إليَّ ، قال :

ـ وصل رجال الحانوتي منذ لحظات ، وسيذهبون إلى مستودع الجثث لإغلاق النعش . هل أطلب إليهم التريّث قليلاً كي تلقي نظرة أخيرة على أمك ؟

قلت :

ـ لا .

فتحدث في الهاتف في صوت خفيض :

ـ انتهى الأمر ، يا فيجاك . قل للرجال أن يذهبوا إلى هناك .

أخبرني أنه سيشارك في مراسم الدفن ، فشكرته . جلس وراء مكتبه ، وصالب ساقيه القصيرتين ، واستند بظهره الى المقعد . وقال لي إننا ، هو وأنا ، سنشترك في هذه المراسم بالاضافة إلى الممرضة القائمة على العمل . إن نظام المأوى لا يسمح للنزلاء بالمشاركة في هذه المراسم ، رغم أنه لم يكن ثمة اعتراض على السماح لعدد منهم بالجلوس إلى جانب الجثمان في الليلة السابقة . أوضح لي الأمور قائلاً :

ـ ذلك في سبيل مصلحتهم ، وحرصاً على مشاعرهم . ولكنني سمحت بصورة خاصة لصديق قديم لوالدتك بالحضور معنا . وهو يدعى توماس بيريز .

وابتسم المدير ، واستتلى :

ـ إنها قصة صغيرة مؤثرة . فهو وأمك لم يكونا يفترقان في أغلب الأوقات . كان الآخرون يغيظون بيريز بتسميته «الخطيب» . ويروحون يسألونه على الدوام : «متى تتزوجها ؟» . فيردّ عليهم بابتسامة . فيسرّهم ذلك حقاً . وهكذا يمكنك أن تخمّن مبلغ شعوره بالأسى لوفاة أمك . خطر لي أنني لا أستطيع أن أرفض السماح له بالمشاركة في الدفن . ولكنني منعته ، نزولاً عند نصيحة طبيبنا ، من السهر إلى جانب الجثمان ليلة البارحة .

جلسنا صامتين فترة من الوقت . ونهض المدير ، وخطا صوب النافذة . قال :

ـ آه . لقد جاء الكاهن من مارينغو . وصل مبكراً قليلاً .

حذرني أن الطريق ستستغرق منا ثلاثة أرباع الساعة سيراً على القدمين للوصول إلى الكنيسة القائمة في القرية . ثم هبطنا السلّم .

كان الكاهن ينتظرنا عند باب المستودع يصحبه مساعدان من الجوقة يحمل أحدهما مبخرة . وكان الكاهن ينحني فوق هذا الأخير يعدّل طول السلسلة الفضية التي تحمل المبخرة . وما أن وقع بصره علينا حتى قوّم عوده وتمتم بضع كلمات ، وناداني «يا ولدي» . ثم دخل إلى المستودع .

لحظت من فوري أن أربعة رجال يقفون خلف النعش ، وأن براغي الغطاء استوت في أماكنها . وسمعت في اللحظة ذاتها المدير يقول إن العربة وصلت ، فشرع الكاهن يرنّم صلواته . ومن بعد تحرك الجميع . واقترب الرجال الأربعة من النعش وهم يحملون شريطة من قماش أسود ، بينا اتخذت والكاهن وصبيّاه أماكننا . وكان ثمة سيدة لم أرها من قبل تنتصب عند الباب . التفت المدير

إليها قائلاً :

ـ هذا هو السيد ميرسو .

لم أستوعب اسمها ، ولكنني فهمت أنها ممرضة ملحقة بالمأوى . عندما قدموني لها أحنت ظهرها ، دون أن يرتسم على وجهها الطويل النحيل أي ظل لابتسام . تنحيّنا عند الباب لمرور النعش ، ثم تبعنا الرجال الأربعة الذين يحملونه على طول الرواق ، ووصلنا إلى المدخل الرئيسي حيث تنتظر العربة . كانت العربة مستطيلة ، لمّاعة ، مدهونة بلون أسود ، فذكرتني بحاملة الأقلام الموضوعة على المكتب .

إلى جانب العربة يقف رجل قصير يرتدي زياً غريباً مهمته ، على ما عرفتُ ، تنظيم مراسم الدفن . وغير بعيد عنه وقف السيد بيريز ، صديق أمي الحميم ، مرتبكاً خجلان . كان يلبس قبعة طرية من اللباد ذات حافة عريضة رفعها لدى مرور النعش ، وبنطالاً يشدُّ على حذائيه ، وربطة عنق سوداء صغيرة أكثر مما ينبغي بالنسبة إلى ياقة قميصه البيضاء العالية . وكانت شفتاه ترتجفان تحت أنفه المنتفخ المزروع بالبثور . إن ما لفت انتباهي أول شيء هو أذناه . كانتا متهدلتين قرمزيتين أشبه بفقاعتين من الشمع المذاب على شحوب وجهه ، تؤطرهما خصلات شعره الحريري الأبيض .

عيَّن لنا مستخدم الحانوتي أمكنتنا ، على أن يتقدَّم الكاهن العربة ، وكل واحد من الرجال الأربعة في إحدى زواياها . ثم المدير وأنا ، ومن بعدُ ، في المؤخرة ، العجوز بيريز والممرضة .

السماء كتلة ملتهبة من الضياء ، والهواء يزداد حرارة . وأحسست أولى موجات القيظ تلفح ظهري ، وثيابي السوداء تجعل الأمور أكثر سوءاً . ولم أستطع أن أفهم فيمَ انتظرنا فترة طويلة من وقت قبل أن نبدأ المسير . رفع العجوز بيريز قبعته عن رأسه بعد أن كان لبسها . التفت ناحيته قليلاً . كنت أرنو إليه

عندما روى لي المدير تفصيلات جديدة عنه . أذكر أنه قال إن العجوز بيريز وأمي اعتادا القيام بنزهة طويلة معاً في برودة الأمسيات ، وما أكثر ما كانا يصلان حتى القرية في رفقة الممرضة .

تطلعت إلى الريف من حولي ، إلى صفوف شجر السرو الطويلة المتجهة صوب خط السماء والتلال ، والتربة الحارة الحمراء المرقشة بالخضرة المفعمة حيوية ، وهنا وهنالك يتبدّى منزل وحيد في وجه الضوء ـ وكنت أستطيع أن أفهم أحاسيس أمي . لا ريبة أن العشيات في هذه الأرجاء أشبه ببهجة مكتئبة . والآونة ، في هذا التوهج الطاغي الذي تبعثه شمس الصباح ، وكل شيء يومض في الضباب الحروري ، فإن ثمة شيئاً لا إنسانياً ، يثبط الهمة ، في هذا المشهد كله .

تحركنا أخيراً . فلحظت عندها أن بيريز يعرج قليلاً . وبدأ العجوز القصير يتباطأ في سيره فيما العربة تسرع في انطلاقها على الأرض. وتمهّل أحد الرجال الذين يسيرون إلى جانب العربة أيضاً وراح يمشي إلى جانبي . أدهشتني السرعة التي راحت الشمس فيها تتسلق قبة السماء ، وتبين لي عندها أن الهواء كان ، طوال فترة مديدة ، ينبض بطنين الحشرات وخشخشة العشب الذي تسري الحرارة في عروقه . وراح العرق يتدحرج على وجهي . ولما لم أكن ألبس قبعة فقد شرعت أُروِّح بمنديلي .

استدار مستخدم الجانوتي صوبي وغمغم كلمات لم أفهم معناها . وشرع يمسح في الوقت ذاته قمة رأسه بمنديل يحمله في يده اليسرى ، بينا رفع بيده اليمنى قبعته . سألته ماذا قال ، فأشار بيده إلى السماء ، وقال :

ـ الشمس سيئة جداً هذا النهار ، أليس كذلك ؟

قلت :

ـ نعم .

سألني بعد فترة قصيرة :

ـ أنحن ندفن أمك ؟

قلت ، مرة أخرى :

ـ نعم .

ـ ما هو عمرها ؟

ـ حسناً . كانت عجوزاً .

لم أكن أعرف عمرها على وجه الدقة .

ولجأ إلى الصمت .

تطلعت إلى الوراء فرأيت بيريز يعرج على بعد خمسين ياردة منا . كان يؤرجح قبعته المصنوعة من اللباد على مدى ذراعه ، ويحاول اللحاق بنا . ألقيت نظرة أخرى على المدير . كان يمشي في خطوات موزونة بعناية ، وهو يدرس كل خطوة ، وقطرات من العرق تتلألأ على جبهته فلا يمسحها ..

خطر لي أن موكبنا الصغير يتقدم بسرعة أكثر من ذي قبل . وأينما ألقيت بصري صافحت عينيَّ مشاهد الريف السابحة في موج من شعاعات الشمس ، فيما السماء تلتهب فلا أستطيع رفع بصري إليها. اجتزنا طريقاً فُرِشَتْ بالزفت حديثاً ، تلعب شعاعات الحرارة فوقها وتنغرس الأقدام فيها لدى كل خطوة مخلّفة آثاراً لماعة سوداء . وفي المقدمة ، كانت قبعة السائق السوداء البراقّة تبدو أشبه بكتلة من تلك المادة اللزجة ألصقت فوق العربة . كان ذلك الوهج الأبيض المزرقُ فوقنا والسواد المحدق بنا يمنحان المرء شعوراً غريباً يشبه الحلم . وكذلك كان لون العربة الأسود ، وسواد ثياب الرجال الأربعة المعتم ، وتلك الآثار الفضية السوداء التي تتركها أقدامنا على أرض الطريق . وكانت هنالك تلك الروائح ، روائح الجلد الحار وروث حصان العربة ، تختلط برائحة دخان البخور . هذه الروائح جميعاً ، بالاضافة إلى الآثار المتخلّفة عن أرق

الليلة الماضية ، جعلت عينيَّ تغيمان .

التفتُ إلى الوراء مرة أخرى . بدا لي بيريز بعيداً جداً ، ضائعاً وسط ضباب من الحر . ثم اختفى عن نظري على حين بغتة . فتشتُ عنه برهة ، وخطر لي أنه ربما انعطف عن الطريق إلى الحقول . ثم لحظتُ أن ثمة انعطافاً في الطريق إلى الأمام منا . لا ريب أن بيريز ، الذي يعرف المقاطعة جيداً، اتخذ درباً مختصرة للحاق بنا . وما أسرع أن لحق بنا بعد المنعطف ، ثم أضعته من جديد . لقد اتخذ درباً مختصرة أخرى ، ولحق بنا . حدث هذا مراراً خلال نصف ساعة من الزمن . وما أسرع أن فقدت اهتمامي بحركاته . كان صدغاي ينبضان ، وكنت أجرُّ نفسي مرغماً .

انتهت الاجراءات بعد ذلك في سرعة وبشكل لم أعد أذكر معه شيئاً من التفصيلات . ولكنني أذكر أننا عندما غدونا في ضاحية القرية قالت الممرضة لي شيئاً . شدهني صوتها ، فهو لا ينسجم وملامحها على الاطلاق . كان موسيقياً وعلى شيء من الارتعاش.قالت لي :

- إذا مشى المرء على مهلة أصيب بضربة شمس . وإذا أسرع في خطواته يعرق ، والهواء البارد في الكنيسة يرعشه .

كنت من رأيها . فكلا الأمرين صحيحان.

علقت بذهني بعض الذكريات الأخرى عن مراسم الدفن . وجه ذلك الصبي العجوز ، مثلاً ، عندما لحق بنا للمرة الأخيرة عند حدود القرية وعيناه تسحان العبرات ، عبرات التأثر أو التعب ، أو كلاهما معاً فتمنعها تجاعيد وجهه عن الانحدار . كانت تنتشر ، وتتصالب ، وتشكِّل نوعاً من الطلاء على وجهه العجوز المرهق .

وأستطيع أن أتذكر طلعة الكنيسة ، والقرويين في الشارع ، والغرنوقيات الحمر على الأضرحة ، وإغماءة بيريز- هذا الذي تغضن مثل دمية من

الخروق ، والتربة السمراء المصفرّة المصبوغة بالحمرة التي تنهال على نعش أمي ، وقطع الجذور البيضاء المختلطة بها ، ثم الأناس الآخرين ، والأصوات ، وانتظار وصول الباص خارج المقهى ، وزمجرة المحرك ، وفرحتي الصغيرة عندما دخلت أول الشوارع البراقة المنارة في الجزائر ، وتصوُّر نفسي أنطلق قدماً إلى سريري ، واستغراقي في النوم طوال اثنتي عشرة ساعة كاملة .

٢

فهمت عندما استيقظت لماذا بدا مخدومي كالح الوجه عندما طلبت منه يَوْمَيْ عطلة . فاليوم هو السبت . لم يخطر لي ذلك في بال من قبل قط . ولكن هذه الفكرة واتتني وأنا أنهض من فراشي . لا ريب أنه فكَّر أني سأحصل على أربعة أيام من العطلة ، وينبغي أن يتوقّع المرء منه ألا يحبَّ ذلك . لم تكن تلك غلطتي إذا دفنوا أمي البارحة لا اليوم . ومهما يكن من أمر فقد كنت سأحصل على عطلةٍ يَوْمَيْ السبت والأحد ، على أية حال . ولكن ذلك لم يمنعني من إدراك وجهة نظر مخدومي .

كان نهوضي من الفراش شاقاً ، فقد أنهكتني اختبارات يوم البارحة . رحت أتساءل ، وأنا أحلق ذقني ، كيف تراني أُمضي الصباح . قررت أن السباحة ستردُّ لي نشاطي . فركبت الترام للذهاب إلى المرفأ .

لم تتبدل الأمور على الاطلاق . كان ثمة عدد كبير من الشبان في بحيرة السباحة ، وماري كوردونا التي كانت ضاربة على الآلة الكاتبة في المكتب من قَبْلُ . كان توقي إليها شديداً في تلك الأيام ، وخيّل إليَّ أنها تستلطفني هي الأخرى . ولكنها لم تَبْقَ بيننا غير فترة قصيرة من زمن لم يتحقق لنا خلالها شيء من ذلك .

وفيما أنا أُساعدها في الصعود إلى الطوف تركتْ يدي تستقرُّ على نهديها . ثم

استلقت على الطوف وأنا أسبح في الماء . استدارت بعد لحظة ورنت إليَّ . كان شعرها يغطي عينيها ، وكانت تضحك . تسلقت الطوف إلى جانبها . الهواء دافىء عذب فوضعت رأسي ، في شبه مزاح ، على حجرها فما أبدت تأففاً ، فتركته يرتاح حيث كان . السماء بأسرها في عينيَّ ، زرقاء مذهبة ، وأنا أحسّ معدة ماري ترتفع وتنخفض في لطف تحت رأسي . ولا ريبة أنّا استلقينا حوالي نصف ساعة على الطوف نصف نائمين . وما أن اشتدت حرارة الشمس حتى ألقت بنفسها في الماء فتبعتها . أمسكت بها ، ولففت ذراعي حول خصرها ، وسبحنا جنباً إلى جنب . وكانت لا تبرح تضحك .

وفيما نحن نجفف جسدينا على شاطىء البحيرة قالت لي :

ـ أنا أشدّ سمرة منك .

سألتها إن كانت تودّ مرافقتي إلى السينما في تلك العشية . فضحكت مرة أخرى ، وقالت :

ـ أجل .

وافقتْ على الذهاب إن أنا أخذتها إلى فيلم ساخر يتحدث الجميع عنه ، ويمثل فيه فرنانديل .

حدقت في ربطة عنقي السوداء عندما ارتدينا ملابسنا ، وسألتني إن كنت في حال حِداد . فأخبرتها أن أمي انتقلت إلى الدار الآخرة .

سألتني :

ـ متى ؟

فأجبت :

ـ البارحة .

لم تقلْ شيئاً. لحظتُ أنها تراجعت قليلاً . عزمت على أن أشرح لها أنها ليست خطيئتي ، ولكنني تمالكت نفسي عندما تذكرت أنني قلت ذلك

لمخدومي ، وتأكد لديَّ أن ذلك التصريح سيكون أقرب إلى الحماقة . وسواء أكان ذلك دلالة على الحماقة أم لا ـ فالمرء لا يستطع أن يمتنع عن الشعور بشيء من الذنب في مثل هذه الحالات .

ومهما يكن من أمر ، فقد نسيت ماري كل شيء في المساء . كان الفيلم ساخراً في بعض مقاطعه ، ولكنه سخيف من حيث الاجمال . وقد ضغطت ساقها على ساقي في صالة السينما ، وكنت ألاطف نهديها . وقبلتها قبيل نهاية العرض ، لكنها كانت قبلة خرقاء . وعندما خرجنا رافقتني إلى شقتي .

كانت ماري قد ذهبت عندما أفقت من نومي . سبق أن أنبأتني أن خالتها تنتظرها في الصباح . وتذكرت أن اليوم هو الأحد ، وكان ذلك يُضجرني . فأنا لا أُبالي بأيام الآحاد . أدرت رأسي ورحت أشمّ في كسل رائحة مياه البحر التي خلَّفها رأس ماري على الوسادة . نمت حتى الساعة العاشرة . وبقيت مستلقياً في سريري حتى الظهيرة أدخن لفافة بعد أخرى . وقررت ألا أتناول طعام الغذاء عند سيليست كعادتي . لا ريبة أنهم سيمطرونني بالأسئلة ، وأنا أكره ذلك . قَلَوْتُ بيضاً ، والتهمته من المقلاة . فعلت ذلك من دون خبز لأنه لم يكن لديَّ شيء منه ، ولم أكن أودّ أن أنزل لأبتاع شيئاً .

ضجرتُ قليلاً بعد الغذاء وتجوَّلت في الشقة الصغيرة . كانت الشقة تناسبنا عندما كانت أمي تعيش معي ، ولكنني غدوت الآن وحيداً ، وصارت الشقة كبيرة عليَّ ، فنقلت مائدة الطعام إلى غرفة نومي . فأنا لا أستعمل الآن غير هذه الغرفة التي حشرت فيها جميع الأثاث الذي أحتاج إليه : سرير نحاسي ، ومزينة ، وبعض مقاعد خيزران تجوَّف أكثرها ، وخزانة ذات مرآة فَقَدَتْ بريقها . أما ما تبقى من الشقة فلم أكن أستعمله ، فأهملته .

التقطتُ بعد مدة ، كيما أقوم بعمل ما ، صحيفة قديمة عن الأرض وشرعت أقرأها . كان ثمة إعلان عن أملاح كروشن قطعته وألصقته على ألبوم أجمع فيه

الأشياء التي تسليني من الصحف . ثم غسلت يديّ ، وخرجت إلى الشرفة .
غرفة نومي تطلُّ على الشارع الرئيسي في ناحيتنا . ورغم أن الجو رائع بعيد الظهيرة كان بلاط الشارع أسود براقاً ، والناس القلائل الذين يمرون يبدون في عجلة من أمرهم . مرّت أول الأمر أسرة تقوم بنزهة نهار الأحد ؛ ثم صبيّان صغيران يرتديان بزتين بحريتين وسروالين قصيرين يبلغان حتى ركبتيهما ، تلوح عليهما علائم الارتباك ؛ ومن بعد فتاة صغيرة عقدت شعرها بشريطة كبيرة زهراء اللون وانتعلت حذاء جلدياً لماعاً . وجاءت خلفهم أمهم ، وهي امرأة سمينة ضخمة الجثة ترتدي ثوباً حريرياً بني اللون ، وتدحرج الأب بعدهم ، وهو رجل قصير نحيل كنت أعرفه بالنظر فقط . كان يضع على رأسه قبعة من القش ، ويمسك عصا بيده ، ويلبس ربطة عنق على شكل فراشة . ولما رأيته إلى جانب زوجته فهمت لماذا يقول الناس إنه ينحدر من عائلة طيبة .
بعيد ذلك مرَّ جماعة من الشبان ، من أهل الضاحية ، بشعورهم اللماعة المصقولة ، وربطات عنقهم الحمراء ومعاطفهم المخصورة ، وجيوبهم المزخرفة ، وأحذيتهم العريضة . وخمّنت أنهم في طريقهم إلى إحدى دور السينما الكبيرة في وسط المدينة مما جعلهم يبكّرون في الانطلاق ويسرعون خطواتهم صوب محطة الترام ، يضحكون ويلغطون بأعلى أصواتهم .
شرعت الدرب تقفر تدريجياً بعد رحيلهم . لا بدَّ أن الحفلات النهارية بدأت . ولم يبق في الطرقات غير بعض أصحاب الحوانيت والقطط . وكانت السماء صافية فوق أشجار الجميّز التي تشكل حدود الطريق ، والنور لطيفاً . أخرج بائع التبغ على الجانب الآخر من الشارع كرسياً على الرصيف وضعه أمام باب دكانه ، وتراخى عليه وقد استند بذراعيه إلى ظهره . وهذه عربات الترام التي كانت تغصُّ قبل لحظات بالركاب فرغت الآن تماماً . وفي القهوة الصغيرة ، «شي بيرو» ، إلى جانب بائع التبغ ، كان النادل يكنس النشارة في

المطعم الفارغ . إنها بُعَيْد ظهيرة يوم أحد نموذجية ...

أدرت مقعدي وجلست جلسة بائع التبغ ، فقد وجدتها أكثر راحة . وبعد أن أحرقت لفافتين رجعت أدراجي إلى الغرفة ، وتناولت قطعة من الشوكولاتة ، وعدت لالتهامها عند النافذة . وما أسرع أن تزركشت السماء بالسحب ، وحسبت أن عاصفة من عواصف الصيف ستهبُّ . ولكنَّ الغيوم انقشعت تدريجياً بعد أن خلَّفت في الشوارع نوعاً من تهديد بالمطر جعلها أشد ظلمة . وقعدت أراقب السماء فترة طويلة من الوقت .

عند الساعة الخامسة ارتفعت ضجةٌ صاخبة لحافلات الترام . كانت تعود أدراجها من الملعب الكائن في الضاحية حيث جرت مباراة في كرة القدم . كانت سلالمها الخلفية مزدحمة وقد تعلَّق الناس على درجاتها . وجاءت حافلة أخرى تحمل أفراد الفريق . عرفت ذلك من حقائبهم الصغيرة التي يحملون . كانوا ينشدون نشيد فريقهم الخاص : «إجعلوا الكرة تتدحرج ، أيها الفتيان» . وأسامَ أحدهم بصره إليَّ ، وصاح :

ـ لقد انتصرنا عليهم !

فلوَّحت له بيدي ، وقلت :

ـ عمل رائع !

وابتدأت من تلك اللحظة قوافل السيارات الخاصة تتدفق .

تبدلت السماء من جديد ، وراح لمعان محمرٌ ينتشر خلف رؤوس البيوت . وأخذت الطرقات تزدحم بالسابلة مع هبوط الغسق . كان الناس يرجعون من جولات نزهتهم ، ورأيت بينهم ذلك الرجل الرشيق وزوجه البدينة . وكان الأولاد يتذمرون ويتدحرجون في كسل وراء أهليهم . وأفرغت دور السينما المحلية بعد لحظات روّادها من المشاهدين . ولحظت أن الشبان الذين يخرجون منها يمشون بخطوات سريعة ويتحركون في رشاقة أكثر من رشاقة الأيام العادية . لا

ريبة أن الفيلم الذي شاهدوه يتحدث عن بعض مغامرات الغرب الأميركي الوحشية . وَقَدِمَ بعدهم أولئك الذين أمّوا دور السينما في وسط المدينة وهم يبدون أكثر رزانة . وكان بعضهم يضحكون . وعلى أية حال ، فقد كانت تظهر عليهم ملامح الضنى والإنهاك . وظلّ عددٌ منهم يتجولون في الشارع تحت نافذتي . ثم جاءت باقة من الفتيان تماسكت أذرعهنَّ . فانحرف الشبان تحت نافذتي للتحرش بهنَّ ، وأطلقوا بعض النكات ، فأدارت الفتيات رؤوسهن وجعلن يضحكن . كنت أعرفهنَّ ، فهنَّ من الحي الذي أعيش فيه . ورفعت اثنتان أو ثلاث منهن رؤوسهن ، ولوّحن لي بأيديهنَّ .

في تلك اللحظة أضيئت مصابيح الشارع فجأة ، فجعلت النجوم التي بدأت تتلألأ في سماء الليل أكثر شحوباً . وشعرت بعينيَّ تزدادان تعباً من النظر إلى الاضواء وتلك الحركات التي أراقبها في الشارع . وكانت هنالك بحيرات من الضوء تحت المصابيح ، وحافلة ترام تمرُّ بين حين وآخر ، فيلتمع شعر إحدى الفتيات ، أو ابتسامة ما ، أو سوار فضّي .

وما أسرع أن شرع الشارع يقفر تدريجياً ، فيما حافلات الترام تتناقص والسماء تشتدُّ اسوداداً فوق الشوارع والمصابيح ، إلى أن خلت الطرقات من كل إنسان ، وراح قط وحيد يجتاز الشارع المهجور في غير عجلة .

خطر لي أن أفتش عن شيء آكله . كنت مستنداً إلى ظهر مقعدي من زمن طويل أرنو إلى الأسفل فآلمتني رقبتي عندما وقفت . نزلت ، وابتعت قليلاً من الخبز والسباغيتي ، وطهوت طعامي ، وأكلت واقفاً على رجليَّ . وأردت أن أدخن لفافة أخرى عند النافذة ، لكن الليل ازداد رطوبة فعدلت عن ذلك . وفيما أنا أعود أدراجي بعد أن أغلقت النافذة ، ألقيتُ نظرة على المرآة فرأيتُ على صفحتها زاوية من مائدتي وفوقها مصباح السبيرتو وقطعاً من الخبز . وفكرت أنه يوم أحد آخر قد انقضى ، وأن أمي دفنت ، وأنني في الغداة عائد إلى عملي كالمعتاد . إن شيئاً من حياتي ، في الحقيقة ، لم يتبدل قط .

٣

كان صباحي في المكتب مليئاً بالعمل ، ومخدومي طيب المزاج . بل سألني إن لم أكن تعبت كثيراً ، وأتبع ذلك فسألني عن عمر أمي . فكرت قليلاً ، ومن بَعْدُ أجبت :

ـ في حدود الستين تقريباً .

لم أكن أريد أن أخطِىء في تقدير عمرها . وبدا أنه تعزى ـ ولا أعلم لماذا ـ وأن ذلك السؤال ختم القضية .

كان ثمة كومة من فواتير الشحن مكدسة على منضدتي ، وعليَّ أن أنظر فيها كلها . غسلت يديَّ قبل أن أترك المكتب لتناول طعام الغذاء . كنت أحب أن أفعل ذلك عند الظهيرة دائماً . أما عند المساء فإن سروري يقلُّ كثيراً لأن المنشفة الملفوفة تكون رطبة بعد أن يستعملها عدد كبير من الناس . وقد لفتُّ نظر مخدومي مرة إلى ذلك . فأجابني إن الأمر مؤسف حقاً ـ ولكنه يرى ذلك أمراً لا أهمية له . خرجت من المكتب وقد تأخرت قليلاً عن المعتاد ، في الثانية عشرة والنصف ، برفقة عمانويل الذي يعمل في مكتب الشحن . كان مكتبنا يطلُّ على البحر ، فتوقفنا فترة على السلَّم نتطلع إلى تحميل البواخر في الميناء . وكانت الشمس لافحة . ووصلت شاحنة كبيرة في تلك اللحظة بالذات ، ترافقها ضجة سلاسل وانفجارات في محركها ، فاقترح عمانويل أن نحاول

اللحاق بها . بدأت أركض . تجاوزتنا الشاحنة ، وكان ينبغي علينا أن نركض مسافة طويلة للحاق بها . شعرت بشيء من الدوار من جراء الحرارة وضجيج المحرك . لم أكن أعي غير ركضنا الجنوني على طول رصيف الميناء ، بين الآلات والرافعات ، وصواري السفن السوداء المتراقصة في عرض البحر . كنت أول من لحق بالشاحنة . فوثبت ، وحطَيت بسلام ، وساعدت عمانويل على الصعود إلى جانبي . لم نكن نستطيع التنفس ، وكانت ارتطامات الشاحنة على حصى الطريق غير المتساوية تزيد الأمور سوءاً . وضحك عمانويل ، ولهث في أذني :

ـ فعلناها !

عندما وصلنا إلى مطعم سيليست كنا نسبح في عرقنا . كان سيليست قابعاً في ركنه المألوف إلى جانب المدخل ، ومريوله ينتفخ على بطنه ، وشاربه الأبيض بارز إلى الأمام . ولما رآني أظهر عطفه عليَّ ، وأعلن أنه «يأمل أن تكون الأمور على خير ما يرام» . فأجبت بالايجاب . كنت أتضوَّر جوعاً . التهمت طعامي في سرعة ، وشربت قهوة ، ثم ذهبت إلى شقتي وغفوت قليلاً بعد أن شربت أكثر مما ينبغي من الخمرة . وعندما استيقظت دخنت لفافة قبل أن أنهض من فراشي . تأخرت قليلاً فَوَجَبَ عليَّ أن أركض للحاق بالترام . كان المكتب خانقاً ، واشتغلت جاهداً طوال بعد الظهر . اغتبطت كثيراً عندما أغلقنا المكتب ، ورحت أسير على مهلةٍ على طول رصيف الميناء تنفحني برودة العشية . كانت السماء خضراء ، وكنت مسروراً لخروجي من ذلك الجو الخانق في المكتب ، وعلى أي حال ، فقد قفلت رأساً إلى البيت لأضع قليلاً من البطاطا على النار .

كانت الصالة مظلمة ، فما أن بدأت أرقى في السلم حتى اصطدمت بالعجوز سالامانو الذي يقطن إلى جواري . كان يصطحب كلبه معه على جَرْي عادته .

لم يفترق الإثنان عن بعضهما طوال ثماني سنوات كاملة . كلب سالامانو حيوانٌ بشعٌ ، قصير القوائم ، طويل الشعر متموّجه ، كبير الأذنين مسترخيهما ، مصاب بمرض جلدي ـ الجرب على ما أعتقد . وقد فقد نتيجة ذلك شعره الطويل وتغطى جسده بقشرة سمراء اللون .. ولا ريب أن سالامانو ، لكثرة ما عاش في غرفة صغيرة واحدة مع كلبه الصغير ، انتهى إلى أن يشبهه كثيراً ، فقلّ شعره وانتشرت على وجهه بقع حمر . وأخذ الكلب عن صاحبه نوعاً من مشيته المقوسة الغريبة ، فهو يمدّ بوزه إلى الأمام ويشدُّ أنفه صوب الأرض . كان الاثنان يشبهان بعضهما بصورة غريبة ، ولكنهما يكرهان بعضهما كثيراً .

كان العجوز يصحب كلبه مرتين يومياً ، في الساعة الحادية عشرة والساعة السادسة ، في نزهة قصيرة ، ومنذ ثماني سنوات لم يتغير أسلوب نزهتهما . كنت تستطيع رؤيتهما على طول شارع ليون والكلب يسحب صاحبه بجماع قوّته حتى يتعثر العجوز أخيراً ويكاد أن يهوي على الأرض . وعندها يضرب كلبه ويشتمه . وينكمش الكلب من الخوف ، ويروح يتلكأ في خطواته ، فيحين دور صاحبه أن يسحبه . وعندما ينسى الكلب ، ويروح يشدّ صاحبه كرة أخرى ، فهو يُضرب من جديد ويهان . وعندها يتوقفان على الرصيف ، كلاهما ، ويحدّق كلٌّ منهما في وجه الآخر ، الكلب في خوف ، والرجل في حقد يلتمع في عينيه . ويتكرر هذا المشهد يومياً . وعندما يحبُّ الكلب أن يقف ليبول يمنعه العجوز عن ذلك ، ويشدّه خلفه ، فيخلّف الكلب المسكين وراءه خطاً من النقط الصغيرة . وإذا فعل الكلب ذلك في الغرفة فهو يتعرض للضرب أيضاً .

هذا المشهد يستمر منذ ثماني سنوات ، ويقول سيليست دائماً إنه «عار صارخ» ، وإنه يجب أن يفعل أحدهم شيئاً بهذا الخصوص . لكنَّ أحداً لم يتدخل في الموضوع . عندما التقيت سالامانو في الصالة كان يشتم كلبه ، وينعته بالنغل ، والحيوان الحقير ، وما شابه ذلك . وكان الكلب يئن . فقلت :

ـ نعمت مساء .

بيد أن العجوز لم يردّ عليَّ ، وتابع سيل شتائمه . خطر لي أن أسأله عن ذنب الكلب . فما أعطاني جواباً مرة أخرى ، ولكنه استمر يصيح :

ـ أيها الخسيس الحقير !

لم أكن أتبين شيئاً في العتمة ، وخيّل لي أنه يُثبِّت شيئاً في رقبة الكلب . رفعت نبرة صوتي قليلاً . فتمتم من غير أن يلتفت في شيء من غضب مكبوت :

ـ إنه ينرفزني دائماً ، لعنة الله عليه !

صعد في السلّم . حاول الكلب أن يقاوم فثبَّت قوائمه على الأرض ، ولكن العجوز جرّه على الدرجات جراً .

في تلك اللحظة دخل جاري الثاني من الشارع . كانت الفكرة العامة عنه في الحيّ أنه يعمل قواداً . فإذا سأله أحدهم عن مهنته يقول إنه حانوتي . وكان ثمة شيء أكيد عنه : فهو لم يكن محبوباً على الاطلاق في الشـارع . وكان يحادثني أحياناً ، ويزورني في غرفتي لتزجية الوقت ، وقد كنت أصغي اليه ، وأجد أن ما يقول يبعث على الاثارة . والحق أني لا أملك حجة لطرده . كان يدعى سانتيس ، ريمون سانتيس . قصيراً ، عريض الكتفين ، أنفه أشبه بأنوف الملاكمين ، أنيق الهندام على الدوام . قال لي مرة ، مشيراً إلى سالامانو ، إن حاله عبارة عن «عار فاضح» ، وسألني إن لم يكن عمل العجوز ضد كلبه يبعث على اشمئزازي . فأجبته قائلاً :

ـ لا .

رقينا في السلم معاً ، أنا وسانتيس ، وما أن استدرت مقترباً من باب غرفتي حتى بادرني قائلاً :

ـ رويدك ! ما رأيك في تناول شيء من الطعام معي ؟ إن لديَّ مقانق وقليلاً من الخمرة .

خطر لي أن ذلك يوفّر عليَّ عناء إعداد طعامي ، فقلت :
ـ شكراً جزيلاً .

هو الآخر يملك غرفة واحدة ، ومطهى صغيراً من دون نافذة . ورأيت ملاكاً من الجص الأبيض والـوردي موضوعـاً فوق سريره ، وبعض صور أبطال رياضيين ، وفتيات عاريات موزعة على الجدار المقابل . لم يكن السرير مرتباً ، كما أن الغرفة قذرة . أشعل قنديل الكاز ، وبحث في جيبه ، وأخرج رباطاً وسخاً لفَّ به يده اليمنى . سألته ممَّ يشكو . أجاب إنه تشاجر مع شخص كان ينوي إزعاجه .

شرح لي الأمر قائلاً :

ـ لست ممن يبحثون عن المتاعب . ولكنني سريع الاحتداد نوعاً ما . قال لي ذلك الشخص في شيء من التحدي : «إنزل من هذا الترام إن كنت رجلاً» . فأجبته : «إجنح إلى هدوء ، فأنا لم أزعجك قطّ » . فأجابني إنني لست رجلاً . حسناً ، عندها نزلت . وقلت له : «يحسن أن تبقي فمك مغلقاً ، وإلا أغلقته لك أنا» . فقال : «أحب أن أراك تفعل ذلك !» . لطمته على وجهه لطمة قوية . وقع . اقتربت بعد قليل لأنهضه ، فركلني من حيث هو على الأرض . ضربته بركبتي وأتبعتها بلطمتين أخريين . كان ينزف مثل خنزير . سألته إن كان ذلك كافياً ، فأجاب : «نعم» .

كان سانتيس منهمكاً في لفّ رباطه خلال الحديث ، وكنت جالساً على السرير .

قال :

ـ وهكذا أنت ترى أنها لم تكن غلطتي . هو طلب ذلك ، ما ؟
فأومأت برأسي ، فأضاف :

ـ الحقيقة أنني أريد أن أسألك النصح في موضوع هذه القضية . لقد تجولت

في العالم قليلاً ، وأجرؤ على القول إن في مقدورك أن تساعدني . وعندها أصير رفيقك مدى الحياة . فأنا لا أنسى من قدَّم لي عوناً .

لم أردّ . سألني إن كنت أريد أن نصير صديقين . أجبت أني لا أعترض على ذلك ، فأهرق جوابي الغبطة في فؤاده . أخرج بعض المقانق ، وطبخها في المقلاة ، ثم هيأ المائدة ، ووضع زجاجتين من النبيذ وهو معتصمٌ بالصمت طوال الوقت .

بدأنا نأكل ، راح يروي لي قصته كلها في شيء من التردد أول الأمر :

ـ ثمة فتاة في هذا الموضوع ـ كالعادة . كنا ننام معاً . وكنت أحتفظ بها ، وأنفقت عليها مبلغاً من المال . والشخص الذي ضربتُ هو شقيقها .

أضاف ، وقد لحظ أني لم أرد عليه بحرف واحد ، أنه يعرف ما يقول الجيران عنه . ولكن ذلك لا أساس له من الصحة ، فهو صاحب مبادىء مثل أي إنسان آخر ، كما أنه يعمل في حانوت .

وقال لي :

ـ حسناً . فلنتابع قصتنا ... أدركت ذات يوم أنها تخونني . كان يعطيها ما يكفي للاستمرار في الحياة لا أكثر ، ويدفع أجر غرفتها وعشرين فرنكاً يومياً لقاء الطعام . «ثلاثمئة فرنك أجرة الغرفة ، وستمئة فرنك للطعام ، وهدية صغيرة بين وقت وآخر ، زوج من الجوارب أو سوى ذلك . لنقل ألف فرنك في الشهر . ولكن ذلك لم يكن يكفي سيدتي الجميلة . فهي لا تني تنقّ أن ما أعطي لها لا يكفيها . سألتها ذات يوم : «اسمعي ، لمَ لا تبحثين عن عمل يستغرق منك عدة ساعات في اليوم ؟ ذلك يسهّل الأمور عليَّ أيضاً.لقد اشتريتُ لك ثوباً جديداً هذا الشهر ، ودفعت أجر غرفتك ، وأعطيك عشرين فرنكاً يومياً . لكنك تبعثرين نقودك في المقهى مع عصبة من الفتيات . أنت تعطيهن سكراً وقهوة ، وطبيعي أن ثمن ذلك يخرج من جيبي . أنا أُحْسِنُ معاملتك ، وأنت تردين لي

٣

ذلك بصورة سيئة» . لم تكن تصغي إلى حديثي عن العمل ، رغم أنها لا تفتأ تقول إنها لا تستطيع تدبير الأمور بما أدفع لها . وذات يوم اكتشفت أنها تخدعني .

وتابع حديثه فشرح لي أنه اكتشف يوماً ورقة يانصيب في حقيبتها ، ولما سألها من أين تدبرت المال لشرائها سكتت فما أعطته جواباً . ثم اكتشف مرة أخرى بطاقة رهن سوارين لم يرها تلبسهما قط من قبل .

ـ وهكذا اكتشفت أن ثمة خداعاً ، فأخبرتها أن الأمور انقطعت بيننا . ولكنني ضربتها بشدة أول الأمر ، ورويتُ لها نتفاً عن حقائقها . قلت لها إنها لم تكن تبالي بشيء قدر اهتمامها بالاندساس في الأسرَّة مع الرجال حيثما أُتيح لها ذلك . وحذّرتها مباشرة : «لسوف تندمين ذات يوم ، يا فتاتي ، وتتمنين العودة إليَّ . إن جميع فتيات الشارع يحسدنك على حظك في احتفاظي بك» .

كان قد ضربها حتى أدماها . ولم يكن فعل ذلك من قبل .

ـ حسناً ، لم أضربها بعنف على أية حال . لكن بلطف ، إن صح التعبير . صرختْ قليلاً ، فاضطررت إلى إغلاق النافذة . ثم كانت تنتهي الأمور على مألوف العادة . أما هذه المرة فضربتها بشدة . ولكنني لم أعاقبها عقاباً كافياً على ما يخال لي . أتفهم ما أعنيه ؟

أوضح لي أنه يطلب نصيحتي في هذا الموضوع . كانت فتيلة المصباح تدخن ، وتوقف عن غدوِّه ورواحه لإصلاحها . كنت أصغي إليه دون أن أفوه بحرف واحد . وكنت شربت زجاجة كاملة من النبيذ فبدأت رأسي تدور . ولما لم أعد أملك أية لفافة شرعت أدخن لفافات ريمون . ومرّتْ آخرُ حافلات الترام ، فهمدت آخر ضجة للشارع مع مرورها . وتابع ريمون حديثه . إن ما يضجره هو أنه «انغمس معها في اللذة» ، على حدّ تعبيره . ولكنه يريد أن يلقّنها درساً .

قال إن أول فكرة خطرت له هي أن يقودها إلى فندق ، ومن ثم يستدعي شرطة «الأخلاقية» . ولسوف يقنع الشرطة بتدوين اسمها على «لائحة البغايا» مما يفقدها صوابها . ثم توجه إلى عدد من أصدقائه من عالم الرذيلة والإجرام ، أصدقاء يعاشرون مومسات يستطيعون استشارتهنّ ، فلم يخرج منهم بنتيجةٍ مُرضية . وأشار إلى أن من مصلحة المرء أن يكون من ذلك العالم في شارعهم . فما هي الفائدة في أن تكون واحداً من أبناء ذلك العالم إذا كنت تجهل كيف تعامل فتاة خدعتك ؟ عندما أوضح لهم ذلك اقترحوا عليه أن «يسمها بالنار» ولم يكن ذلك ما يرجوه . ذلك يحتاج إلى تفكير طويل ... إنه يودّ قبل كل شيء أن يسألني سؤالاً . وقبل أن يطرح عليَّ هذا السؤال فهو يودُّ أن يعرف رأيي في القصة التي يسردها عليَّ بصورة عامة .

أجبت أن لا رأي لي فيها ، ولكنها كانت مثيرة .

هل أعتقد أنها خدعته حقاً ؟

يجب أن أعرف أن الأمور تشير إلى ذلك . ثم سألني ما إذا كنت أعتقد بوجوب معاقبتها ، وماذا كنت أفعل لو كنت مكانه . فأجبت إن المرء لايستطيع أن يعرف تماماً كيف يتصرف في مثل هذه الأحوال ، ولكنني فهمت أنه يريد إنزال العقاب بها .

شربت مزيداً من الخمرة . أشعل ريمون لفافة أخرى وشرع يشرح لي ما اعتزم أن يفعل . أراد أن يكتب لها رسالة ، «تعجُّ ازدراء وتجرح مشاعرها» ، وتحملها في الوقت ذاته على الندم مما اجترحت . ومن بَعْدُ ، عندما تعود إليه ، فسوف ينام معها ، وعندما «ينتهي بالضبط» فسوف يبصق في وجهها ويطردها من الغرفة . فوافقت على أن الفكرة لا بأس بها . لسوف تُنزل عقاباً جيداً .

لكن ريمون أعلمني أنه لا يحسُّ نفسه قادراً على كتابة الرسالة التي يحتاج إليها ، وههنا تكمن مساعدتي له . ولما لم أقل شيئاً سألني إن كان يضجرني أن

أكتبها له ، فقلت : «كلا» .

شرب قدحاً من الخمرة وانتصب على قدميه . أزاح الصحون وما تبقى من مقانق باردة ليفسح مجالاً على المنضدة . ثم مسحها بقطعة من القماش المشمّع ، وأخرج ورقة مربعة من أحد الدروج إلى جانب المنضدة ، ثم أخرج مغلفاً ، ومسكة ريشة صغيرة من الخشب الأحمر ، وزجاجة حبر مربعة الشكل تموج بحبر بنفسجي اللون . وما أن ذكر لي اسم الفتاة حتى عرفت أنها مغربية .

كتبت الرسالة . لم أبذل شيئاً من الجهد في ذلك ، ولكنني اجتهدت في إرضاء ريمون لأنه ليس ثمة سبب يدعوني ألا أرضيه . ثم قرأت ما كتبت في صوت عال . فأصغى إليَّ وهو ينفث دخان لفافته ، ويومىء برأسه بين لحظة وأخرى . قال :

ـ اقرأها مرة أخرى .

وبدا السرور على ملامحه .

ضحك قائلاً :

ـ هذا ما أريده تماماً . أستطيع أن أقول إنك فتى ذكيّ ، أيها الفتى العجوز ، وأنت تعرف كيف تضع النقاط على الحروف .

لم أكن انتبهتُ قبلاً إلى هذه «الفتى العجوز» . تنبهت إلى ذلك عندما ربَّت بشدة على كتفي ، وقال :

ـ هذان نحن صديقان إذن ، أليس كذلك ؟

جنحت إلى الصمت ، فردد جملته مرة أخرى . لم أكن أبالي بذلك ، ولكنني عندما لحظت تلهفه أجبت قائلاً : «بلى» .

وضع الرسالة في المغلف ، وأتينا على ما تبقى من الخمرة . ثم جلسنا فترة ندخن من غير أن نتحدث . كان الشارع هادئاً تماماً ، أللهم إلا حين تمرُّ سيارة بين فترة وأخرى . وقلت أخيراً إن الوقت تأخر ، فوافقني ريمون على ذلك .

وأضاف قائلاً :

ـ لقد مرَّ الوقت سريعاً هذا المساء .

كان كلامه صحيحاً على نحو ما . أردت أن أصل إلى سريري ، وكنت أحسُّ مشقةً في الحركة . ويبدو أني بدوت متعباً . فقد قال لي ريمون :

ـ يجب ألا يترك المرء هذه الأمور تركعه .

لم أفهم قصده أول الأمر . ثم أوضح لي أنه سمع عن موت أمي . وأضاف إن هذا شيء لا بدَّ أن يحدث اليوم أو غداً . فشكرته على ذلك .

عندما نهضت صافحني ريمون بحرارة ، وقال إن الرجال يفهمون بعضهم بعضاً على الدوام . وما أن أغلقت الباب خلفي حتى تمهلت لحظات على بسطة السلّم . كان البيت صامتاً صمت القبر ، وثمة رائحة رطبة سوداء تهبُّ من ثغرة السلّم . لم أكن أسمع شيئاً غير الدم الذي يطن في أذنيَّ ، فوقفت أصغي إليه . وبدأ الكلب يئن في غرفة سالامانو ، وارتفع هذا الأنين تدريجياً مثل وردة تتفتح في الصمت والعتمة .

٤

عملت كثيراً في المكتب طوال الأسبوع . مرَّ بي ريمون مرة وأنبأني أنه بعث الرسالة . ذهبت إلى السينما مرتين برفقة عمانويل الذي لم يكن يفهم دائماً ما يجري على الشاشة ويلحُ عليَّ أن أشرح له ذلك . البارحة كان السبت . جاءت ماري كما اتفقنا . كانت ترتدي ثوباً جميلاً ذا خطوط حمراء وبيضاء ، وصندلاً جلدياً ، فلم أستطع أن أرفع عينيَّ عنها . وكان المرء يستطيع أن يرى خطوط نهديها الصغيرين القاسيين ، وكان وجهها الذي لوَّحته الشمس يشبه وردة مخملية بنية اللون . ركبنا الباص وذهبنا إلى الشاطىء الذي أعرف ، ويقع على بعد عدة أميال عن مدينة الجزائر . انه عبارة عن شريط من الرمل بين صفين من الصخور ، غرست في أحد جانبيه غابة من القصب من ناحية اليابسة . لم تكن الشمس حارة في الساعة الرابعة ، وكان الماء فاتراً ، ومويجات صغيرة كسلى تزحف على الرمل .

علمتني ماري لعبة جديدة : أن نشرب ونحن نسبح الزبد المنتشر على الموج ، ومن بعد نستلقي على ظهرينا ونبصقه في وجه السماء . وكان ذلك يشكل نوعاً من ضباب رقيق مزبد يتبدد في الهواء أو يسّاقط رذاذاً دافئاً على وجهينا . وسرعان ما التهب فمي بحرارة الملح الذي ابتلعت . وجاءت ماري وعانقتني في الماء وألصقت فمها بفمي . رطَّب لسانها شفتيَّ ، وتركنا الأمواج

تُدحرجنا دقيقة أو دقيقتين قبل أن نسبح عائدين إلى الشاطيء .

ما أن انتهينا من ارتداء ملابسنا ، حتى راحت ماري تتطلع إليَّ في قسوة . كانت عيناها تبرقان . فقبَّلتها ، وصمت كلانا بعد ذلك فترة من الزمن . ألصقتها بي ونحن نغذُّ الخطا على الشاطيء للحاق بالباص . ورجعنا إلى غرفتي ، وارتمينا على السرير . تركت النافذة مفتوحة ، وكان لذيذاً أن نشعر بهواء الليل البارد يسبح فوق جسدينا اللذين لوَّحتهما الشمس .

قالت ماري إنها حرة صباح اليوم التالي ، فاقترحت عليها أن نتناول الغذاء معاً . فوافقت . ونزلت أشتري قليلاً من اللحم . وفيما أنا عائد إلى غرفتي سمعت صوت امرأة في غرفة ريمون . وبعد قليل بدأ العجوز سالامانو يزمجر في وجه كلبه ، وتعالى صدى نعال ومخالب على درجات السلم الخشبية ، ثم صوت يقول : «حيوان قذر ! أخرج ، أيها الخسيس !» . وخرج كلاهما إلى الشارع . رويت لماري عادات العجوز ، فضحكت . كانت ترتدي إحدى مناماتي وقد شمّرت كميها . وعندما ضحكت اشتهيتها مرة أخرى . سألتني بعد لحظة إن كنت أحبها . فقلت إن هذا الضرب من الأسئلة لا يحمل أي معنىً فعلاً ، ولكنني أعتقد أني لا أحبها . فارتسمت على وجهها آيات الحزن ، وبينا نحن نهييء طعام الغذاء أشرقت ملامحها وجعلت تضحك ، وكنت أود تقبيلها كلما فعلت ذلك . وفي تلك اللحظة انفجرت المشادَّة في غرفة ريمون .

سمعنا أول الأمر صوت امرأة يردد شيئاً من صوت مرتفع الرنّة ، ثم صوت ريمون يزمجر رداً عليها :

ـ لقد خدعتني ، يا كلبة ! سأعلمك كيف تخدعينني !

ودفَّ بعد ذلك صوت ضربات ، ثم صدى صرخة ثاقبة ـ يقشعر لها جسد المرء . ولم تمض لحظات حتى غصَّ السلم بالناس . خرجت وماري لالقاء نظرة . كانت المرأة لا تبرح تصرخ وريمون لا يفتأ يضربها . وقالت ماري إن

الأمر رهيب ! فلم أرد عليها بحرف . ثم طلبتْ إليَّ أن أنطلق فأحضر شرطياً ، ولكنني أجبتها إنني لا أحب رجال الشرطة . ورغم ذلك انبثق أحدهم في وسطنا . وجاء معه مستأجر الطابق الثاني ، وهو سمكري . عندما قرع على الباب انقطعت الضجة في الغرفة . وقرع مرة أخرى ، بعيد لحظات ، فشرعت المرأة تبكي ، وفتح ريمون الباب . كان ثمة لفافة تتدلى عن شفته السفلى ، وقد خلع على وجهه ابتسامة باهتة .

ـ ما اسمك ؟

فأعطاه ريمون اسمه .

قال الشرطي في جفوة :

ـ ارم اللفافة من فمك عندما تحدثني .

تردد ريمون ، وتطلع إليَّ ، وترك اللفافة في فمه . ولوَّح الشرطي ذراعه وصفعه صفعة قوية على خده الأيسر . طارت اللفافة من بين شفتيه وسقطت على بعد أمتار عديدة . تبدل وجه ريمون ، ولكنه لم يقل شيئاً في الحال . ثم سأل في صوت متواضع إن كان يستطيع أن يلتقط لفافته عن الأرض .

أجابه الشرطي بالايجاب ، وأضاف

ـ لكن لا تنسَ في المرة القادمة أننا لا نأتي أعمالاً سخيفة ، ولا نتوقع مثلها من حمقى مثلكم .

وتابعت الفتاة في تلك الأثناء نشيجها ، وهي تكرر :

ـ لقد ضربني ، هذا الجبان . انه قوّاد .

فتدخّل ريمون قائلاً :

ـ اعذرني ، أيها الضابط . هل من القانون أن يوصم المرء بالقوادة في حضور الناس ؟

أمره الشرطي «أن يسدَّ بوزه» .

فالتفت ريمون إلى الفتاة :

ـ لا تقلقي ، يا حبيبتي ، فسنلتقي ثانية .

قال الشرطي :

ـ كفى .

وأمر الفتاة أن تذهب . وكان يجب أن يبقى ريمون في غرفته حتى يُستدعى من قبل المخفر .

أضاف الشرطي :

ـ يجب أن تخجل من نفسك . فأنت سكران إلى درجة أنك لا تستطيع الوقوف على قدميك . إنك ترتجف من رأسك حتى أخمصيك !

فأجاب ريمون :

ـ أنا لست سكران . ولكنني لا أستطيع الامتناع عن الارتجاف وأنا أراك واقفاً أمامي تحملق فيَّ . هذا شيء طبيعي .

أغلق باب غرفته . وتفرقنا جميعاً . أنهيت وماري إعداد الطعام . ولكنها لم تكن جائعة ، فأكلتُ كلَّ شيء تقريباً . تركتني في الساعة الواحدة ، فنمت قليلاً .

قرع بابي حوالي الساعة الثالثة ، وانفرج عن ريمون . جلس على حافة سريري واعتصم بالصمت طوال لحظات . سألته كيف جرت الأمور . فأجاب إن الأمور سارت على خير ما يرام أول الأمر ، مثلما تمَّ الاتفاق عليه . ولكنها صفعته ، فاحمارَّ وشرع يضربها . أما ما وقع بعد ذلك فقد رأيته بعينيَّ .

قلت :

ـ حسناً . علَّمتها درساً وهذا ما كنت تريد ، أليس كذلك ؟

فوافق ، وقال إنه مهما عملت الشرطة فلن تبدل حقيقة إنزاله العقاب بها . أما بالنسبة إلى رجال الشرطة فهو يعرف كيف يعاملهم . ولكنه يودُّ أن يسألني

ما إذا توقعت منه أن يرد الصفعة للشرطي الذي ضربه .

أجبته أني لم أتوقع منه شيئاً . وعلى أية حال ، فإن الشرطة لن تأخذ مني شيئاً من معلومات . سرّ ريمون ، وسألني ما إذا كنت أحب أن أخرج للنزهة معه . نهضت عن سريري وبدأت أسرّح شعري . قال لي ريمون عندها إنه يحبُّ حقاً أن أشهد في صالحه . فأجبته أني لا أعترض على ذلك . ولكنني لم أعرف ماذا كان يتوقع مني أن أقول .

أجاب :

ـ الأمر في غاية البساطة . أخبرهم فقط أن الفتاة خدعتني .

فوافقت على أن أشهد في مصلحته .

خرجنا معاً ، فطلب لي ريمون كأساً من البراندي في المقهى . ثم لعبنا شوط بليارد . خسرت في آخر لحظة . واقترح عليَّ بعد ذلك أن نذهب إلى الماخور ، فرفضت . فأنا لا أحب ذلك . وفيما نحن نعود أدراجنا على مهلة أخبرني كم كان سعيداً لأنه عاقب عشيقته بصورة أرضته . كنت أجده لطيفاً معي ، واغتبطت كثيراً من نزهتنا معاً . ولم نكد نقترب من البيت حتى رأيت العجوز سالامانو عند الباب . كان يبدو متعباً . ورأيت أن كلبه لم يكن معه . كان ينظر في جميع الجهات ويدور حول نفسه ، وأحياناً يمدُّ بصره خلال عتمة الرواق بعينيه الصغيرتين المحمرتين . كان يتمتم شيئاً بينه وبين نفسه ، وينطلق من جديد يفتش في الطريق روحة رجعة .

سأله ريمون ما الأمر ، فلم يجبه على الفور . ثم سمعته يجمجم :

ـ ذلك اللعين ! ذلك الخسيس القذر !

ولما سألته عن كلبه عبس في وجهي وشخر قائلاً :

ـ هرب !

بعيد برهة قصيرة شرع يشتمه على غير انتظار :

ـ لقد أخذته معي إلى النزهة كالعادة . وكان ثمة معرض هناك فلا يستطيع المرء أن يتحرك إلا في صعوبة بالغة . وتوقفت عند أحد الأكشاك أتفرج على «ملك الأغلال» . وعندما استدرت لمتابعة سيري لم أجد الكلب . كنت أنوي أن أشتري له طوقاً أصغر ، ولكنه لم يخطر لي في بال أن الحيوان يستطيع أن ينزلق من طوقه القديم ويهرب هكذا .

أكد له ريمون أن الكلب سيجد طريق عودته إلى البيت ، وروى له قصصاً عن كلاب اجتازت عشرات الأميال لتعود إلى أصحابها . ولكن ذلك ، على ما يبدو ، ضاعف من قلق العجوز أكثر من ذي قبل .

ـ ألا تعرفان ؟ لسوف يأخذونه . أعني رجال الشرطة . يبدو أن أحداً لن يأخذه ويعنى به . إن البثور المنتشرة على جسمه ستنفّر الجميع منه .

قلت له إن ثمة زريبة في مركز الشرطة يجمعون فيها الكلاب الضالة . ولا بدَّ أن كلبه هناك ، ويستطيع استرداده مقابل مبلغ تافه من المال . فسألني عن مقدار هذا المبلغ ، ولكنني لم أكن أعرف . وإذّاك غضب من جديد .

ـ هل تريدني أن أدفع مالاً من أجل هذه الجيفة ؟ لا ، وحق الله ! فليقتلوه . لست أبالي .

وراح ينادي على كلبه بالأسماء المعهودة .

ضحك ريمون ودلف إلى البيت . تبعته على السلّم ، وافترقنا عند البسطة . بعد دقيقة أو دقيقتين سمعت خطوات سالامانو وقرعاً على بابي .

ـ اعذرني ... آمل ألا أزعجك .

طلبت إليه الدخول ، فهزَّ رأسه . كان يحدق في طرف حذائه ، ويداه المقشرتان العجوزان ترتعشان . شرع يقول دون أن يتطلع في وجهي :

ـ إنهم لن يأخذوه مني حقاً ، يا سيد ميرسو ؟ لا ريب أنهم لن يفعلوا ذلك . أما إذا فعلوه ـ فلست أدري ما يمكن أن يصيبني .

قلت له إن زريبة الكلاب ، على حد علمي ، تحتفظ بالكلاب الشاردة طوال ثلاثة أيام في انتظار أن يطلب أصحابها استردادها . وبعد ذلك يتصرفون بها كما يرون مناسباً .

حملق فيّ في صمت لحظة ، وقال :

ـ نعمتَ مساء .

سمعته بعد ذلك يراوح في غرفته ويغادي طوال فترة . ثم صرّ سريره . ودفئ إليّ عبر الجدار صدى نشيج خافت ، فعرفت أن العجوز يبكي . ولست أدري لماذا شرعت أفكّر في أمي . وكان يجب أن أنهض باكراً في الغداة ، ولم أكن أشعر بالجوع ، فأسرعت إلى سريري دون أن أتناول العشاء .

٥

هتف ريمون إلى المكتب . قال إن أحد أصدقائه ـ وكان حدثه عني ـ يدعوني إلى قضاء نهار الأحد في كوخه الصغير على جانب البحر في ضاحية مدينة الجزائر . أجبت أني أرحب بالفكرة ، ولكنني وعدت أن أقضي نهار الأحد مع فتاة . فردّ ريمون على الفور أنه يدعوها هي الأخرى . فزوج صديقه ستسرّ فعلاً ألا تكون وحيدة بين مجموعة من الرجال .

أردت أن أغلق المسماع حالاً لأن مخدومي يكره أن يستعمل أحدنا هاتف المكتب في مكالمات خاصة . ولكن ريمون سألني أن أنتظر ، فثمة أمر آخر يريد إطلاعي عليه ، وبسببه اتصل بي ، رغم أنه كان في مقدوره الانتظار حتى المساء لإبلاغي الدعوة . قال :

ـ الأمر كما يلي : يلاحقني منذ الصباح جماعة من العرب ، أحدهم هو شقيق تلك الفتاة التي ضربتها . فإذا رأيته يتجول أمام البيت عندما تعود ، فاخبرني .

وعدت أن أفعل ذلك .

في تلك اللحظة أرسل مخدومي يستدعيني . أحسست بالقلق برهة . توقعت أن يطلب إليَّ الالتفات إلى عملي وعدم إضاعة الوقت في الثرثرة مع الاصدقاء على الهاتف . وعلى أية حال ، فإن شيئاً من هذا لم يقع . كان يريد مناقشتي

في موضوع يدرسه ولم يصل فيه إلى نتيجة أو قرار . كان يودُّ أن يفتتح فرعاً في باريس ، مما يسمح له بالتعامل مع الشركات الكبيرة في المكان ذاته ، من دون تأخير في المراسلات البريدية ، وهو يريد أن يعرف إذا كنت مستعداً للذهاب إلى هناك . قال :

ـ أنت شاب ، وأنا واثق أنك ستتمتع بالحياة في باريس . وطبيعي أنك تستطيع أن تسافر في فرنسا عدة أشهر كل عام .

أبديت له استعدادي للذهاب ، ولكنني لم أكن أبالي في الحقيقة إن تمَّ ذلك أم لم يتمّ .

سألني عندها ما اذا كان «تبدل في الحياة» يروقني أم لا ، فأجبت أن المرء لا يغير حياته قط ، وأن جميع الحيوات تتساوى على كل حال ، وأن حياتي الحالية لا تسوؤني قط .

بدا لي عندها أنه استاء ، وقال إنني أجيب على الدوام أجوبة جانبية ، وانني لم أكن طموحاً ـ وان ذلك فاجعاً اذا كان المرء يعمل ، على حد تعبيره .

رجعت إلى عملي . كنت أفضل ألا أثير استياءه ، ولكنني لم أجد سبباً يدعو إلى «تبدل في الحياة» . لم تكن حياتي تعيسة ، على أية حال . يوم كنت طالباً كان عندي طموح كبير من هذا النوع . أما عندما اضطررت إلى ترك الدراسة فقد فهمت بسرعة أن هذا كله عبثٌ مجرَّد .

جاءت ماري تلك العشية وسألتني إن كنت أتزوجها . أجبتها أني لا أبالي بذلك . ان كانت تريد أن أتزوجها فأنا على استعداد .

سألتني مرة أخرى إن كنت أحبها . فأجبتها كما سبق أن أجبت مرة أن سؤالها لا يعني شيئاً بالنسبة إليَّ ـ ولكنني ، من دون ريب ، لا أحبها .

قالت :

ـ اذا كان هذا شعورك ، فلماذا تتزوجني ؟

شرحت لها أن الأمر لا يحمل أية أهمية ، وأنه اذا كان الزواج يهرق الغبطة في فؤادها فلنتزوج حالاً . وأشرت على أية حال إلى أن الاقتراح صدر عنها . أما أنا فأكتفي بالموافقة .

أعلنتْ عندئذ أن الزواج شيء له أهميته .

فأجبت :

ـ كلا .

لجأت إلى الصمت ، وراحت ترنو إليَّ بنظرة فضولية . ثم سألت :

ـ افرض أن فتاة أخرى سألتك أن تتزوجها ـ أعني فتاة تستلطفها مثلما تستلطفني أنا ـ فهل تقول لها «نعم» أيضاً ؟

ـ من دون ريب .

وعندها قالت إنها تتساءل ما اذا كانت تحبني أم لا . لم أكن أستطيع أن أعرف شيئاً بهذا الخصوص . وبعد فترة أخرى من الصمت تمتمت شيئاً عن أنني «فتى غريب» ، وأضافت :

ـ وأجرؤ على القول إنني أحببتك لهذا السبب . لكن ربما يجيء يوم أكرهك فيه لهذا السبب أيضاً .

لم يكن لديَّ ما أقول ، فأخلدت إلى الصمت .

فكرت قليلاً ، ثم شرعت تبتسم ، وأخذت ذراعي ، وكررت أنها في عجلة من أمرها ، وأنها تريد حقاً أن تتزوجني .

أجبت :

ـ حسناً ، سنتزوج عندما تريدين .

حدثتها عن العرض الذي اقترحه مخدومي ، فقالت إنها تحب أن تذهب إلى باريس .

وعندما أخبرتها أنني عشت فترة في باريس سألتني عنها . قلت :

ـ مدينة وسخـة في رأيي . رفـوف من الحمام وساحـات سوداء . والناس نظيفون ، وجوههم بيضاء .

خرجنا في نزهة على طول شوارع المدينة الرئيسية . كانت النساء جميلات ، فسألتُ ماري إن كانت ترى ذلك هي الأخرى . أجابت بالايجاب . وأنها تفهمني . وانقطعنا عن الحديث فترة بعد ذلك . ومهما يكن من أمر ، فأنا لم أكن أريدها أن تتركني . اقترحـت عليهـا أن نتنـاول طعـام الغـداء لدى سيليست . كانت تحب أن تتناول الغداء معي ، ولكن لديها أعمالاً عند المساء . كنا على مقربة من بيتي ، فقلت :

ـ وداعاً إذن .

وتطلعت إليَّ في عينيَّ .

ـ ألا تودُّ أن تعرف ماذا يشغلني هذا المساء ؟

كنت أودُّ أن أعرف ذلك حقاً ، ولكنه لم يخطر لي أن أسألها . حسبت أنها تحبُّ أن تربكني . ولا ريبة أنني ارتبكت ، فقد انفجرت ضاحكة على غير انتظار ، ومالت عليَّ ، ومدَّت لي شفتيها .

ذهبت وحدي إلى مطعم سيليست . لم أكد أبدأ التهام طعامي حتى جاءت امرأة قصيرة غريبة الطلعة وسألت إن كان في مقدورها الجلوس إلى مائدتي . أكيد أنها كانت تستطيع ذلك . كان لها وجه أشبه بتفاحة ناضجة ، وعينان براقتان ، وتخطو في حركات مترنحة كمن يمشي على سلك مشـدود . خلعت معطفها الضيق ، وجلست ، وشرعت تدرس قائمة أسعار الطعـام في انتباه مشدوه . ثم نادت سيليست وطلبت صنفها المفضل في صوت عجول واضح النبرات لا يخطىء المرء فهم كلماته . وفتحت حقيبتهـا بانتظـار المقبّلات ، وأخرجت قطعة ورق وقلماً ، ودوّنت قيمة الفاتورة مقدماً . ثم أغرقت يدها في حقيبتها مرة أخرى ، وأخرجت حافظة نقود تناولـت منهـا المبلـغ المطلـوب

بالاضافة إلى البقشيش ، ووضعته على غطاء المائدة أمامها .

جاء النادل بالمقبّلات ، فالتهمتها بسرعة فائقة . وأخرجت وهي تنتظر الطبق التالي قلماً آخر ، أزرق اللون هذه المرة ، ومجلة البرامج الاذاعية للأسبوع المقبل ، وشرعت تؤشر بقلمها تحت جميع مواد البرامج تقريباً . كانت المجلة مؤلفة من اثنتي عشرة صفحة ، فجعلت تقرأها في عناية بالغة أثناء الطعام . ولما أنهيت طعامي وجدت أنها لا تبرح تؤشر تحت البرامج بذات الحمية السابقة . ثم نهضت ، ولبست معطفها في عجلة وحركات دقيقة آلية ، ودلفت خارج المطعم في خفة متناهية .

ولما لم يكن لديَّ شيء أفعله تبعتها مسافة من الطريق . مشت على الرصيف باستقامة ، دون أن تقف أو تلتفت إلى الوراء ، خطواتها سريعة جداً بالمقارنة مع قصرها . كانت خطواتها أسرع من أن أستطيع اللحاق بها ، فما أسرع أن أضعت أثرها ، ورجعت في اتجاه البيت . لقد خلّفت تلك «المخلوقة الآلية الصغيرة» (كما سميتها في فكري) شيئاً من الأثر في نفسي ، ثم نسيتها سريعاً .

وبينا أنا أستدير صوب باب غرفتي رأيت العجوز سالامانو ، فدعوته إلى غرفتي ، وأبلغني أن كلبه ضاع نهائياً . ذهب إلى زريبة الحيوانات للسؤال عنه فلم يجده هناك ، وأخبروه أنه ربما سُحق فمات . ولما استفسر ما إذا كان يستفيد شيئاً من السؤال عنه في مركز الشرطة أجابوه ان لدى الشرطة أعمالاً أكثر أهمية من الاحتفاظ بسجلات للكلاب الشاردة في الشوارع . واقترحت عليه أن يحصل على كلب جديد ، فأشار إلى أنه أَلِفَ ذلك الكلب ، وأن الحصول على كلب جديد لن ينسيه الذي مات . وكان على حق في ذلك .

كنت أجلس على سريري طاوياً ساقيَّ تحتي ، وجلس سالامانو على مقعد إلى جانب النضد ، في مقابلتي ، ناشراً يديه على ركبتيه . كان قد احتفظ بقبعته

٤

اللبادية وجعل يتمتم خلف شاربه المصفر المتدلي . ورأيت أنه يبعث على الضجر ، ولكنه لم يكن لديَّ ما أفعل ، ولم أكن أشعر بالنعاس . وهكذا طرحت عليه عدة أسئلة عن كلبه لمتابعة الحديث ـ ما هي الفترة التي بقي فيها لديه ، وما شابه ذلك . فأخبرني أنه حصل عليه بعد وفاة زوجه بفترة قصيرة . كان قد تأخر في زواجه كثيراً . وكانت له في صباه رغبة بالعمل في المسرح . وخلال خدمته العسكرية راح يمثل أدواراً في مسارح الجيش ويلعب أدواره بصورة جيدة كما كان الجميع يقولون له . وأخيراً عمل في السكة الحديدية ، ولم يكن نادماً على ذلك لأنه يتقاضى الآن مرتباً تقاعدياً لا بأس به . لم يكن سعيداً مع زوجته ، ولكن كلاً منهما اعتاد على الآخر . وشعر بالوحدة بعد وفاتها . وقد عرض عليه أحد رفاقه في السكة جرواً أنجبته كلبته ، فاتخذه رفيقاً له . واضطر إلى إرضاعه بواسطة الرضاعة أول الأمر . ولما كان الكلب يعيش أقل مما يعيش الانسان فقد راحا يهرمان معاً .

قال سالامانو :

ـ كان حيواناً شرساً . وكنا نتقاتل بين حين وآخر . ولكنه كان طيباً رغم كل شيء .

قلت إنه كان من جنس طيب ، فاغتبط العجوز من هذا القول كثيراً . قال :

ـ آه ، كان يجب أن ترى إليه قبل أن يمرض ! كان شعره رائعاً . وكان هذا أجمل ما فيه في الحقيقة . وقد بذلت المستحيل لمعالجته . كنت أدلك جسده بالمراهم منذ إصابته بهذا المرض الجلدي كل ليلة . لكن مرضه الحقيقي هو الشيخوخة ، وليس ثمة علاج لمرض الشيخوخة .

تثاءبت ، فقال العجوز إنه يحسن به أن يذهب . قلت إنه يستطيع البقاء ، وإني آسف لما حدث للكلب . شكرني . وقال إن أمي كانت تحبُّ كلبه كثيراً . أشار إليها بقوله «أمك المسكينة» . وكان يخشى أن يثقل عليَّ موتها كثيراً . ولما

لم أعطه جواباً أضاف في سرعة ونبرة مرتبكة أن بعض الناس في الشارع تلفظوا بأقوال قذرة عني لأنني بعثت أمي إلى المأوى . ولكنه هو ، من دون ريب ، يعرفني تماماً ، ويعرف كم كنت أحبها .

أجبت ـ ولست أعرف لماذا ـ أنه يدهشني أن أكون خلّفت مثل هذا الأثر السيىء . ولما لم أكن أملك ما يكفي من مال لابقائها هنا بدا لي الأمر طبيعياً أن أبعث بها إلى المأوى . وأضفت :

ـ وعلى أية حال لم يكن لديها ما تقول لي طوال سنوات ، وكنت أستطيع أن أرى أنها بدأت تكتئب لعدم وجود من يحادثها هنا .

قال :

ـ بلى . المرء يجد أصدقاء في المأوى على أية حال .

نهض ، وأعلن أن الوقت تأخر بالنسبة إليه ويجب أن ينام ، وأضاف إن الحياة ستغدو الآن متعبة قليلاً بالنسبة إليه في هذه الظروف الجديدة . مدَّ يده يصافحني لأول مرة منذ أن تعارفنا ـ لكن في شيء من الخجل على ما تراءى لي ـ فأحسست بالبثور على جلده . واستدار قبل أن يصل إلى الباب ، ورسم على شفتيه ابتسامة صغيرة ، وأضاف :

ـ فلنأمل ألا تنبح الكلاب مرة أخرى هذه الليلة . فأنا أعتقد دائماً أن كلبي هو الذي ينبح ...

٦

عانيت مشقة كبيرة في النهوض صباح الأحد . وجب على ماري أن تهزّ كتفي وتناديني . لم نبال بتناول طعام الفطور لأننا نريد أن نسبح باكراً . كنت أشعر بصداع خفيف ، فأحسست لسيكارتي الأولى طعماً مراً . قالت ماري إني أشبه إنساناً محزوناً يسير في جنازة . وكنت أحسُّ في الواقع شيئاً من الترهل . وكانت ترتدي ثوباً أبيض وقد أرسلت شعرها . قلت لها إنها تبدو فاتنة ، فضحكت في سعادة .

طرقنا باب ريمون في طريقنا ، فأجاب أنه سيلحق بنا في لحظات . هبطنا إلى الشارع . ولما كنت لم أفتح نوافذ غرفتي فقد صفعني بريق شمس الصباح في عينيّ صفعة قوية .

كانت ماري ترقص من الفرح ، ولا تني تردد :

ـ يا لليوم الرائع !

أحسستني أكثر ارتياحاً بعد قليل ، وأدركت أنني جائع . أخبرت ماري ، فلم تبالي . كانت تحمل كيساً من قماش مشمَّع وضعت فيه ثياب استحمامنا ومنشفة ، وسمعنا ريمون يغلق الباب . كان يلبس بنطالاً أزرق اللون ، وقميصاً أبيض قصير الكمين ، ويضع على رأسه قبعة من قش . لحظت أن ساعديه يزخران بالشعر ، ولكن جلده ناصع البياض تحت ذلك الشعر . وقد أضحكت

قبعة القش ماري . أما أنا فاشمئززت من منظره قليلاً . كان يلـوح صافي المزاج ، فهو يصفر أثناء هبوطه درجات السلَّم . حياني قائلاً : «مرحباً ، أيها الفتى العجوز !» . ونادى ماري بلقب «آنسة» .

كنا قد ذهبنا مساء الأمس إلى مخفر الشرطة ، وقدمت شهادة لصالح ريمون حول موضوع الفتاة التي خدعته . وهكذا أخلوا سبيلـه بعـد تنبيه شديد . لكنهم لم يمعنوا النظر في إفادتي .

قررنا بعد حديث قصير أن نستقل الباص . كان الشاطِىء قريباً ، ولكنه يفضل أن نصل الى هناك في أقرب وقت ممكن . وفيما نحن نخطو صوب موقف الباص لكزني ريمون في مرفقي وطلب إليَّ أن أنظر عبر الشارع . رأيت جماعة من العرب يستندون على نافذة بائع التبغ . كانوا يحدقون فينا في صمت على طريقتهم الخاصة ـ كما لو كنا قطعاً من الحجارة أو أشجاراً مائتة . وهمس لي ريمون أن العربي الثاني إلى اليسار كان «رَجُلَهُ» ، وتراءى لي أنه مضطـرب قليلاً . أكَّد لي أن القضية في حكم المنتهية . وسألتْ ماري التي لم تفهم شيئاً من أقواله :

ـ ما الأمر ؟

قلت إن هؤلاء العرب عبر الشارع يريدون بريمـون شراً . فأصرَّت على الذهاب فوراً . وضحك ريمون . وهزَّ كتفيه . وقال ان السيدة الشابة على حق . فليس ثمة ضرورة للتباطؤ حيث كنا . وفي منتصف الطريق إلى موقف الباص التفت إلى الوراء من فوق كتفه وقال إن العرب لا يتبعوننا . وتطلعت بدوري الى الخلف . كانوا لا يبرحون في مكانهم ، ينظرون بذات اللامبالاة إلى البقعة التي تركناها .

شعرت عندما ركبنا الباص أن ريمون استعاد هدوءه ، وشرع يرسل دعاباته لإضحاك ماري . وشعرت أنها تروق في عينيه ، ولكنها لم تكن تحدثه على

الاطلاق . كانت تنظر في عينيَّ بين لحظة وأخرى ، وتبتسم .

نزلنـا في ضاحية مدينـة الجزائـر . لم يكن الشاطـىء بعيداً عن موقف الباص .. يجتاز المرء تلة من الأرض تشرف على البحر ثم تنحدر صوب الرمال . الأرض هنا مغطاة بأحجار صفراء ونبات السوسن البري الملتمع بياضاً تحت زرقة السماء المكتسية بتلك القسوة المعدنية التي ترتديها في الأيام الحارة . وكانت ماري تتسلى بأن تضرب كيسها على الورود فتنثر أوراقها في جميع الاتجاهات . مشينا بين صفين من البيوتات الصغيرة ذات الشرفـات الخشـبية والحواجـز الخضراء أو البيضاء . كان بعضها نصف مختبىء خلف أدغال نبات الطرفاء ، وبعضها الآخر ينهض عريان من الأرض الحجرية . وقبل أن نصل إلى نهاية التلة صار في مقدورنا أن نرى البحر على مرمى البصر ، يضطجع ناعماً مثل المرآة ، وفي المنتأى رأس كبير يبرز فوق انعكاسه الأسود . ودفَّ إلينا من خلال الهواء الهادىء هدير خافت لمحرك زورق ، ورأينا قارب صيد في البعد البعيد يسبح على صدر نعومة البحر بصورة خفية تقريباً .

التقطت ماري بعض أزهار السوسن الصخري . ورأينا ، ونحن نهبط الممر المؤدي إلى البحر ، بعض السباحين الذين انتشروا على الرمال .

كان صديق ريمون يملك كوخاً خشبياً صغيراً قرب نهاية الشاطىء ، مؤخرته تستلقي على الصخور ، بينا مقدمته ترتفع على عمـد تتواثـب الأمـواج على جنباتها . قدَّمنا ريمون لصديقه ويدعى ماسون . رجل طويل العود ، عريض الكتفين والبنية ، زوجته ممتلئة الجسم ، صغيرة القامة ، دائمة المرح ، ذات نبرة باريسية .

أخبرنا ماسون على الفور أن نعتبر أنفسنا في بيتنا . قال إنه خرج للصيد في بكور الصباح ، وأن غداءنا سمك مقلو . هنأته على كوخه الصغير ، فأجابني أنه يقضي على الدوام نهايات الأسبوع والأعياد فيه .

أضاف قائلاً :

ـ أنا وزوجتي على أتمّ وفاق .

نظرت إليها ، فرأيت أنها تفاهمت وماري تماماً ، فهما تضحكان وتثرثران . ففكرت ، ربما للمرة الأولى ، أنني يمكن أن أتزوجها جدياً .

كان ماسون يريد أن يسبح على الفور ، لكن امرأته وريمون رفضا الذهاب . وهكذا انطلق ثلاثتنا ، ماري وماسون وأنا ، إلى الشاطىء . ارتمت ماري في الماء حالاً ، بينا تماهلتُ وماسون قليلاً . كان يتحدث في بطء ، ولحظت أنه اعتاد أن يقول خلال جمل أحاديثه «وبالاضافة إلى هذا» ـ حتى ولو لم يكن يضيف في الواقع أي شيء إلى جملته الأولى . وقال لي عندما تكلمنا عن ماري :

ـ انها تأخذ بالألباب ، وبالاضافة إلى هذا فهي جذابة .

وسرعان ما كففت عن التفكير في تعبيره هذا . كنت أستدفىء بأشعة الشمس ، هذه الأشعة التي أدركت أنها تفعمني لذة . وكان الرمل يسخن تحت الأقدام ، فأخرت هبوطي إلى الماء دقيقة أو دقيقتين رغم شوقي إلى ذلك . قلت لماسون أخيراً :

ـ هل نهبط ؟

وألقيتُ نفسي . خطا ماسون إلى الماء في هدوء ، وبدأ يسبح عندما تعثر فيه . كان يسبح محركاً ذراعيه ، وعلى مهلة ، فتركته ولحقت بماري . كان الماء بارداً ، وكنت سعيداً . سبحنا مبتعدين ، ماري وأنا ، جنباً إلى جنب . كنا نحسُّ أننا متوافقان في حركاتنا وسرورنا . وكنا نستمتع بكل لحظة تمرُّ .

سبحنا مرة إلى عرض البحر ، واضطجعنا على ظهرينا . وبينا أنا أحدّق في السماء كنت أشعر بالشمس تزيح عن وجهي آخر وشاحات الماء المالح التي تسيل في شفتي وعلى وجنتيَّ . ورأينا ماسون يسبح عائداً إلى الشاطىء ويرتمي على الرمل تحت الشمس . كان يبدو من البعيد ضخماً أشبه بحوت جانح .

واقترحت ماري أن نسبح وراء بعضنا . فانطلقت أمامي ، فوضعت ذراعي على خصرها من الخلف ؛ وبينا هي تجرني إلى الأمام بضربات ذراعيها ، شرعت أنا أضرب الماء برجليَّ من ورائها .

بقي صدى تلك الضربات الصغيرة في الماء في أذني فترة طويلة حتى بدأت أتعب منه . تركت ماري وسبحت عائداً وأنا أتنفس أنفاساً عميقة ممدودة . وما أن وصلت إلى الشاطىء حتى استلقيت على بطني إلى جانب ماسون وأرحت وجهي على الرمال . قلت له إن السباحة «كانت لذيذة» ، فوافقني على ذلك . وسرعان ما رجعت ماري . رفعت رأسي لأراها وهي تقترب . كانت تتألق بماء البحر الملح وتمسك شعرها إلى الخلف . ثم استلقت إلى جانبي فشعرت بتوق إلى النوم وقد خدرتني حرارة جسدينا وحرارة الشمس .

هزت ماري ذراعي بعد قليل وأخبرتني أن ماسون رجع إلى كوخه . لقد حان وقت الطعام . نهضت حالاً لأنني كنت أشعر بالجوع ، فقالت لي ماري إني لم أقبّلها منذ الصباح قبلة واحدة . وكان هذا صحيحاً ـ رغم أنني أردت أن أفعل ذلك عدة مرات . قالت :

ـ فلنرجع الى الماء مرة أخرى .

ركضنا إلى البحر وهوينا فوق الموجات المتدفقة لحظات . ثم سبحنا عدة أمتار ، فأحسست بذراعيها تلتفان حولي وتجذبانني إليها . وشعرت بساقيها تحتضنان ساقيَّ ، فتخدرت أعصابي .

عندما رجعنا كان ماسون يقف على سلّم كوخه ينادينا . قلت له إن الجوع ينهشني ، فاستدار إلى زوجته فوراً وأخبرها أني أروق في عينيه . كان الخبز رائعاً . والتهمت حصتي من السمك . وقدّما بعد ذلك لحماً مشوياً وبطاطا . لم ينبس أحدنا بحرف أثناء الطعام . شرب ماسون كمية كبيرة من الخمرة ، وظل يملأ لي قدحي كلما فرغ . ولما أديرت القهوة كان رأسي قد ثقل ، فشرعت أدخن

لفافة بعد أخرى . وتدارسنا ، ماسون وريمون وأنا ، موضوع قضاء شهر آب بكامله على الشاطىء مشتركين في مجموع النفقات .

قالت ماري فجأة :

ـ اسمعوا ! هل تعرفون كم الساعة الآن ؟ إنها الحادية عشرة والنصف فقط !

شُدِهْنَا جميعاً ، وقال ماسون إننا أكلنا باكراً جداً ، ولكن ذلك طبيعيٌ لأن المرء يأكل عندما يجوع .

ضحكت ماري لهذا الكلام ، ولا أعرف السبب في ذلك . أعتقد أنها شربت كثيراً .

سألني ماسون عندها إن كنت أرغب في التنزه معه على الشاطِىء .

قال :

ـ ان امرأتي تغفو قليلاً بعد الظهر دائماً . وأنا لا أحب هذا . ما أحتاج إليه هو نزهة قصيرة . وأنا أقول لها دائماً إن المشي يفيد صحتها كثيراً . ولكن لها رأيها الخاص بعد كل شيء .

أعلنت ماري أنها ستبقى لمساعدة السيدة ماسون في غسل الصحون . فابتسمت هذه وقالت إن أول عمل يجب أن ينجز هو إخراجنا جميعاً من الكوخ . وهكذا خرج ثلاثتنا .

كان الضوء يسّاقط عمودياً تقريباً ، ووهج البحر يعمي الأبصار ، والشاطىء مهجوراً تماماً . وكان المرء يسمع صدى الملاعق والسكاكين والصحون يدفُّ من الأكواخ الصغيرة المتراصفة على سيف البحر . وكانت الحرارة تنبثق من الصخور فيعجز المرء عن التنفس .

بدأ ريمون وماسون يتحدثان عن أشياء وأشخاص لم أكن أعرفهم . فهمت أنهما كانا متعارفين منذ زمن طويل ، حتى أنهما عاشا معاً فترة من الوقت .

وتوجهنا صوب حافة الماء ، وسرنا على طول البحر . كانت في الأحايين تهجم موجة أطول من سابقتها فتغسل صنادلنا . ولم أكن أشغل تفكيري في شيء ، فالشمس الضاربة على رأسي عمودياً تخدرني فأشعر بالنعاس .

في تلك اللحظة قال ريمون شيئاً لماسون لم أسمعه جيداً . ولكنني لمحت في الوقت ذاته عربيين في ثوبين قطنيين أزرقين عند الطرف الآخر من الشاطىء يتجهان صوبنا . التفت إلى ريمون فأومأ برأسه ، قائلاً :

ـ هذا هو !

تابعنا سيرنا باستقامة . وتساءل ماسون كيف استطاعا تعقب أثرنا . خطر لي أنهما شاهدانا نركب الباص ، كما شاهدا حقيبة ماري المشمّعة ، ولكنني لم أقل شيئاً .

اقترب العربيان منا رغم سيرهما البُطيء . ولم نبدل نحن خطوتنا ، ولكن ريمون قال :

ـ أصغيا ! إذا حدث شجار فخذ أنت ، يا ماسون ، الشخص الآخر . أما أنا فسأهتم بالرجل الذي يتأثرني . وأنت ، يا ميرسو ، ابق جانباً لمساعدتنا إن جاء شخص آخر ، وعليك به .

قلت :

ـ حسناً .

ووضع ماسون يديه في جيبيه.

كانت الرمال حارة كالنار ، وأقسم أنها كانت تتوهج باللون الأحمر . المسافة بيننا وبين العربيين تزداد تقلصاً . توقفا على بعد عدة خطوات منا . فتمهلت أنا وماسون ، بينما أكمل ريمون طريقه في اتجاه رجله . لم أسمع ما قال ، ولكنني رأيت العربي يخفض رأسه ، وكأنه سيضرب به على صدره . وثب ريمون إلى الوراء فوراً ، ونادي ماسون لمساعدته . فانطلق ماسون إلى الرجل الآخر وضربه

مرتين بكل قوته . وقع الفتى في اليمّ وبقي هنالك عدة لحظات والفقاقيع تصاّعد على سطح الماء حول رأسه . في تلك الأثناء كان ريمون يضرب الرجل الآخر الذي راح وجهه ينزف دماً . حدَّق فيَّ من فوق كتفه ، وصاح :

ـ راقب ما يجري فقط ! أنا لم أنته منه بعد !

صحت :

ـ انتبه ! انه يحمل سكيناً .

صحت بعد فوات الأوان . فقد شطب الرجل ذراع ريمون وفمه .

وثب ماسون إلى الأمام . ونهض العربي الآخر من الماء وانتصب خلف الذي يحمل السكين . لم نجرؤ على الحركة. تراجع العربيان على مهلـة ، دون أن نتحرك صوبهما خوفاً من السكين ، ودون أن يرفعا عيونهما عنا . استدارا عندما وصلا إلى مسافة مأمونة ولاذا بالفرار . بقينا جامدين ، والشمس تنصبُّ علينا من فوق . كان الدم ينزف من ذراع ريمون المجروحة جرحاً بليغاً فوق المرفق .

قال ماسون إن ثمة طبيباً يقضي أيام الآحاد على الشاطىء. فقال ريمون :

ـ حسناً . فلنذهب إليه مباشرة .

كانت الكلمات تخرج من فمه في صعوبة ، فالدم يصعّد فقاقيع في فمه من جرحه الآخر .

أسندناه وساعدناه في العودة إلى الكوخ . وهناك قال لنا إن الجروح سطحية وإن في مقدوره أن يمشي إلى الطبيب . شحب وجه ماري ، وبـكت السيدة ماسون .

ذهب ماسون وريمون إلى الطبيب وبقيت في الكوخ أشرح الأمور للمرأتين . كان ذلك الشرح يزعجني ، فصمتُّ وشرعت أدخن ، وأنا أحدِّق في البحر .

رجع ريمون برفقة ماسون في حدود الساعة الواحدة والنصف . ضمّد ذراعه ووضع شريطة طبية على زاوية فمه . وقد أكّد له الطبيب أن الاصابة بسيطة ،

ولكنه بدا كئيب الطلعة . وحاول ماسون أن يضحكه فما أفلح .

قال ريمون إنه سيذهب في جولة على الشاطىء . فسألته إلى أين ينتوي الذهاب ، فغمغم قائلاً إنه «يود أن يستنشق الهواء» . وقلت وماسون عندها اننا سنرافقه ، ولكنه غضب وأمرنا ألا نتدخل في شؤونه . وأعلن ماسون انه يجب ألا نصرّ على ذلك طالما أنه لا يريدنا أن نرافقه . ولكنني لحقت به فور خروجه .

الجو أشبه بالفرن خارجاً ، والشمس تتكسّر شظايا من نار على الرمال والبحر . مشينا طويلاً ، يراودني الشعور أن ريمون يعرف إلى أين يتجه ، ولكنني كنت على خطأ .

وصلنا عند الطرف الآخر من الشاطىء إلى جدول صغير يمرُّ بين الرمال بعد أن يتدفق من خلف صخرة كبيرة . هنالك التقينا العربيين من جديد ، وقد استلقيا على الرمال بثيابهما الزرقاء . كان يبدو عليهما الهدوء ، كمن لا يحمل علينا أي حقد على الاطلاق ، كما أن أحداً لم يتحرك من مكانه لدى اقترابنا . كان الرجل الذي ضرب ريمون يرنو إليه دون أن يقول شيئاً . وكان الرجل الآخر ينفخ في قصبة صغيرة تبعث ثلاث نغمات يتيمات يرددها بلا انقطاع ، وهو يراقبنا من زاوية عينه .

لم يتحرك أحد طوال فترة . الشمس تغمر كل شيء ، والصمت مطبق إلا من صوت خرير الجدول وتلك النغمات الثلاث القصار . وضع ريمون يده في جيب مسدسه ، ولكن العربيين لم يتحركا . ولحظت أن العربي الذي ينفخ في مزمار القصب تباعدت أصابع قدميه الكبيرة عن بعضها في قدمه .

خاطبني ريمون قائلاً دون أن يرفع عينيه عن غريمه :

ـ هل أطلق عليه رصاصة ؟

فكّرت حالاً . اذا قلت له ألا يفعل ذلك نظراً لحاله النفسية ، فقد يتحمّس

ويطلق النار حتماً . واكتفيت بأن أجبته بما خطر لي على الفور :

ـ إنه لم يكلمك بعد . من الحماقة أن تطلق النار عليه هكذا ، دون إثارة .

خيّم الصمت من جديد طوال لحظات ، فلم نكن نسمع غير خرير الجدول ونغمات الناي تسبح في الهواء الساكن الحار .

قال ريمون أخيراً :

ـ حسناً . اذا كان الأمر كذلك فسأشتمه ، وحين يردُّ عليَّ أقتله .

قلت :

ـ أجل . لكنه ان لم يخرج سكينه فلا تطلق النار .

وبدأ ريمون يتململ . تابع العربي صاحب المزمار النفخ في قصبته ، والاثنان يتأملان كل حركة تصدر عنا .

قلت لريمون :

ـ أصغ . صارعه مصارعة ، واعطني مسدسك . فإذا شرع الآخر في إثارة المشاكل وأخرج سكينه ، فسأطلق عليه النار .

التمعت الشمس على مسدس ريمون وهو يناولنيه . لكن أحداً لم يأت حركة ، كما لو أن كل شيء انغلق علينا ومنعنا عن الاتيان بأي حركة . كنا نراقب بعضنا بعضاً ، دون أن نخفض عيوننا . وبدا العالم بأسره قد جمد على هذه المساحة الضيقة من الرمال بين الشمس والبحر ، وصمت الناي والجدول . وخطر لي عندئذ أنه يمكن أن أطلق النار ، أو لا أطلقها ـ وستكون النتيجة واحدة تماماً .

ولكن العربيين اختفيا على حين غرة . تسللا مثل حرباوين تحت الصخر . وهكذا استدرت وريمون ورجعنا أدراجنا . ارتسمت السعادة على ملامحه ، وشرع يتحدث عن الباص الذي سنستقله في طريق العودة .

وصلنا إلى الكوخ فهرول ريمون يصعد درجات السلّم على الفور ، ولكنني

وقفت عند أول درجة منه . كان الضوء يضرب على رأسي ، ولم أكن أحتمل صعود هذه الدرجات لأتحدث مرة أخرى إلى المرأتين . كان الحر شديداً فيشقّ عليّ البقاء حيث وقفت ، تحت ذلك الطوفان من الضوء الخاطف للأبصار المنصب من قمة السماء . أن أبقى أو أن أتحرك ذاهباً ـ كان الأمر سيان . رجعت بعد لحظة الى الشاطىء ، وشرعت أسير على الرمال .

كان هنالك ذلك الوهج الأحمر ذاته منبسطاً على مدّ البصر ، وموجات صغيرة تصفع الرمل الحار في تتابعات صغيرة لاهثة . وفيما أنا أتوجه صوب الصخور في نهاية الشاطىء رحت أشعر بصدغيّ ينتفخان تحت انصباب الضوء . كان الضوء يتركّز عليّ في محاولة لمنعي من التقدم . وصرت أطحن أسناني كلما صفعتني موجة حارة على جبهتي ، وأجمع قبضتيّ في جيبي سروالي ، وأضغط على كل عضلة لأطرد الشمس وذلك الدوخان المظلم المنهال عليّ . وعند كل سيف أشعة ينبثق من صدفة أو زجاجة محطمة على الرمال يتشنج فكّي بقسوة . إن أحداً لا يريد ضربي ، ولذلك تابعت السير باستقامة .

تبدّت تلك الصخرة الصغيرة السوداء بعيداً على الشاطىء محاطة بهالة من الضوء الباهر ورذاذ البحر ، ولكنني كنت أفكر في ذلك الجدول البارد النقي خلفها ، وأشتاق إلى أن أسمع خرير الماء المتدفق ، والتخلص من ذلك الضوء ، ورؤية المرأتين الباكيتين ، والتوتر والجهد ـ وأن أسترد بحيرة الظلال إلى جانب الصخرة وهدوئها البارد !

لم أكد أخطو مقترباً حتى رأيت غريم ريمون العربي رجع أدراجه . كان وحيداً هذه المرة ، مستلقياً على جنبه ، ويده خلف رأسه ، ورأسه مغمورة بظل الصخرة ، بينما الشمس تغمر كامل جسده . وكان المرء يرى ثوبه كله يرشح بالحرارة . بوغتُّ حقاً . فقد تصورت أن القضية انتهت ، فجئت إلى هنا دون أن أفكر في شيء على الاطلاق .

وما أن رآني العربي حتى نهض قليلاً ، وامتدت يده إلى جيبه . طبيعي أنني مددتُ يدي أبحث عن مسدس ريمون في جيب معطفي . ثم ترك العربي نفسه يغرق من جديد ، لكن دون أن يخرج يده من جيبه . كنت على مسافة منه ، حوالي عشرة أمتار ، وكنت أحذر نظرته السوداء من بين أهدابه نصف المغلقة ، فتروح صورته تتراقص أمام عينيَّ . كان صوت الأمواج متكاسلاً ، واهناً ، اكثر مما هو عند الظهيرة . بيد أن الضوء لم يتغير . فهو ينصبُّ بوحشية مثله قبلاً على طول امتداد الرمال المنتهية عند الصخرة . ويبدو أن الشمس لم تتقدم على الاطلاق طوال ساعتين ، فهي مسترخية في بحر من الفولاذ المنصهر . ومرَّت على البعد باخرة على خط الأفق . كنت أستطيع أن أميّز من طرف عيني تلك الرقعة الصغيرة السوداء المتحركة ، بينما نظري كله مثبت على العربي .

خطر لي أن أستدير ، وأبتعد ، وأكفَّ عن التفكير في هذا الموضوع . ولكن الشاطىء بأسره ، السابح في موج من الحرارة ، راح يضغط على ظهري . خطوت قليلاً في اتجاه الجدول . فلم يتحرك العربي . إن مسافة لا تبرح تفصل بيننا ، على أية حال . وبدا لي ، ربما بسبب من الظلال على وجهه ، أنه يكشر في وجهي .

انتظرت . وبدأت الحرارة تشوي وجنتيَّ ، وقطرات من العرق تتجمع في حاجبيَّ . إنها ذات الحرارة التي شعرتُ بها يوم دفن أمي ، وذات الأحاسيس التي مرَّت بي ـ وخاصة في جبهتي ، حيث كل عرق ينفجر تحت الجلد . لم أعد أحتمل ذلك على الاطلاق ، فخطوت خطوة أخري إلى الأمام . كنت أعرف أن ذلك حماقة مني ، فأنا لن أهرب من الشمس إنْ خطوت خطوة إلى الأمام . ولكنني فعلت ذلك ، خطوة واحدة ، إلى الأمام . فسحب العربي سكينه عند ذلك ، ورفعها في وجهي ، في وجه ضوء الشمس .

انزلقت حزمة من الضوء على طرف الفولاذ ، فشعرت كما لو أن شفرة حادة

طويلة تضربني في جبيني . وفي اللحظة ذاتها تدفق العرق الغزير الذي تجمّع عند حاجبي وانزلق في عينيّ ، فغطاهما بوشاح دافىء من الضباب . غشيتْ عينايَ تحت برقع من الدموع والعبرات : لم أكن أشعر سوى بصنوج الشمس تضرب صدغي ، وتلك الشفرة اللماعة المتضوئة من السكين تقرض أهدابي وتحفر في كرتي عينيّ .

وراح كل شيء يترنح أمام عيني ، ودفّت من البحر لفحة ملتهبة ، وانشقّت السماء إلى نصفين ، من طرفها إلى طرفها ، وأغدقت صحيفة متسعة من اللهب من قلب ذلك الشق . وغدت كل عضلة في جسدي أشبه بنابض فولاذي ، فضغطت يدي على المسدس . استجاب المقداح ، وهدهدت يدي بطن الخشب الأملس . وهكذا ، في ملء ذلك الصوت الصاخب الذي يصمُّ الآذان ، بدأ كل شيء . مسحت العرق وستار الضوء . وعرفت أني هدمت توازن النهار ، وهدوء شاطىء رحب كنت سعيداً على رماله . ولكنني أطلقت أربع طلقات أخرى على جسد لا حياة فيه ، فلم تخلّف عليه أي أثر مرئي . كانت كل طلقة ناجحة عبارة عن طرقة صاخبة مشؤومة أخرى على باب دماري .

القسم الثاني

١

استجوبت عدة مرات بعد توقيفي مباشرة . ولكنها كانت استجوابات شكلية لمعرفة هويتي وما شابه ذلك . في الاستجواب الأول الذي جرى في مخفر الشرطة خيّل إليّ أن أحداً لا يبالي بقضيتي . ولكنني عندما مثلت أمام قاضي التحقيق بعد أسبوع كامل لحظت أنه نظر إليّ في فضول مركّز. ولكنه بدأ عمله ، أول الأمر ، كالآخرين فاستفسر عن اسمي ، وعنواني ، ومهنتي ، وتاريخ ولادتي ومكانها . ثم سألني عما إذا كنت اخترت محامياً للدفاع عني . فأجبت نفياً . أنا لم أفكر في ذلك ، وسألته ما إذا كان ضرورياً أن أفعله فأجاب :

- لم تسأل هذا السؤال ؟

أجبت أني أرى قضيتي بسيطة جداً . فابتسم . قال :

- حسناً . قد تبدو لك على هذا الغرار. ولكننا يجب أن نراعي نصوص القانون ، فإذا لم تختر محامياً فلسوف تندب المحكمة واحداً عنك .

خطر لي أنه تدبير جميل أن تعمد السلطات إلى البحث في مثل هذه التفاصيل ، وأخبرته بذلك . أومأ برأسه ، ووافق على أن القانون ينصّ على وجوب هذا الأمر .

لم آخذ الموضوع على محمل الجدّ أول الأمر . كانت الغرفة التي استقبلني

فيها تشبه غرفة جلوس عادية ، ذات ستائر على نوافذها ، ومصباح وحيد على منضدتها ، يساقط ضوءه على مقعد مريح أجلسني عليه ، وبقي وجهه هو في الظلال .

قرأت وصفاً مشابهاً لذلك في الكتب ، فبدا لي الأمر كله كما لو كان لعبة . ونظرت إليه بعد محادثتنا . كان رجلاً طويلاً ملامحه حادة ، وعيناه زرقاوان عميقتان ، وشاربه كبير أشهب كثّ ، وشعره أبيض تقريباً ، فبدا لي رفيع الثقافة ، وبالاجمال جذاباً . وكان ثمة أمر وحيد شاذ فيه : فقد كان فمه يتشنج ببشاعة بين فترة وأخرى ، ولكنها أشبه بتشنجة عصبية . وعندما غادرته كنت على وشك أن أمدّ له يدي وأقول «وداعاً» ، ولكنني سرعان ما تذكرت أني قتلت رجلاً .

في اليوم التالي جاء محام إلى زنزانتي . كان رجلاً قصيراً ، سميناً ، صغير السن ، شعره أسود مصقول ، يلبس رغم الحرّ الشديد (وكنت أرتدي قميصاً قصير الكمين) بزة سوداء ، وياقة منشاة ، وربطة عنق مبهرجة ذات خطوط عريضة سوداء وبيضاء . وبعد أن وضع محفظته على سريري قدّم نفسه لي ، وأضاف أنه درس إضبارة قضيتي دراسة مليّة . وكان يرى أنها في حاجة إلى معالجة حذرة ، ولكنه لايشك على الإطلاق في إنقاذي اذا أنا عملت بنصائحه .

فشكرته ، فأجاب :

- حسناً . فلنبحث الموضوع ملياً .

جلس على السرير ، وقال إنهم يقومون بتحريات عن حياتي الخاصة . وعلموا أن أمي ماتت منذ أمد قريب في المأوى . وجرى تحقيق في مارينغو وفهم رجال الشرطة أنني أظهرت كثيراً من «قساوة القلب» في جنازة أمي .

قال المحامي :

- يجب أن تدرك أنني لا أتلذذ بالاستفسار منك عن هذا الموضوع . ولكن

ذلك هام جداً . وما لم أجد حجة أرد بها تهمة «قساوة القلب» فلسوف يرهقني الدفاع عنك . ههنا ، وههنا فقط تستطيع وحدك أن تساعدني .

وسألني إن كنت شعرت بالحزن في «تلك المناسبة الأليمة» . أدهشني السؤال كثيراً ، فأنا أجد كثيراً من الارتباك شخصياً قبل أن أستطيع أن أطرح مثله على مخلوق آخر .

أجبته أنني فقدت في الأعوام الأخيرة عادة مراقبة أحاسيسي ، وأنه يصعب عليَّ أن أجيب عن سؤاله . وأستطيع أن أقول صادقاً إنني كنت مغرماً بوالدتي – لكن ذلك لم يكن يعني شيئاً . وأضفت أن جميع الأشخاص العاديين تمنوا أحياناً ، في شوق أو لا شوق ، موت أولئك الذين يحبونهم .

هنا بتر المحامي حديثي ، وبدا عليه اضطراب كبير :

– ينبغي أن تعدني ألا تقول مثل هذا الكلام في المحكمة . أو أمام قاضي التحقيق .

فَوَعَدْتُ لأرضيه . ولكنني شرحت له أن حاجتي الجسدية تتغلب أحياناً على عواطفي . يوم دفنت أمي مثلاً كنت متعباً ونصف نائم . فلم أنتبه إلى ما كان يحدث . ولكنني كنت أستطيع أن أؤكد له شيئاً واحداً : هو أنني كنت أفضل لو أن أمي لم تمت .

بدا الامتعاض على المحامي . ونبر في جفوة :

– هذا لا يكفي .

فكّر برهة ، وسألني ما إذا كان يستطيع أن يقول إنني كنت في ذلك اليوم قد سيطرت على أعصابي . قلت :

– كلا . لن يكون هذا صحيحاً .

نظر إليَّ نظرة غريبة كما لو كنت أوحي له بالاشمئزاز . ثم أخبرني ، في شيء من العداء تقريباً ، أن المحكمة في جميع الأحوال ستسمع أقوال مدير المأوى

وبعض معاونيه كشهود . وختم حديثه قائلاً :
ـ وقد يكون ذلك انعطافة سيئة جداً .

ولما قلت إن وفاة أمي لا علاقة لها بالتهمة الموجهة ضدي أجابني أن هذه الملحوظة تدل على جهلي بنصوص القوانين .

تركني بعد لحظات وقد بدا غاضباً . تمنيت لو أنه بقي عندي فترة أطول ، ولو أني أستطيع أن أشرح له أنني أحتاج إلى عطفه ، لا ليدافع عني بمزيد من القوة بل بطريقة طبيعية إذا صحَّ التعبير . وكنت أرى أني أثرت أعصابه . لم يكن يستطيع أن يفهمني ؛ وقد حقد عليَّ قليلاً من دون ريب . مرة أو مرتين خطر لي أن أؤكد له أنني كنت كسائر الناس ، شخصاً عادياً كسائر الناس . ولكن هذا كله لم يكن يصل بنا إلى نتيجة ، فعدلت عن ذلك ـ بدافع الكسل أكثر من أي شيء آخر .

اقتادوني بعد ذلك إلى مكتب قاضي التحقيق مرة أخرى . كانت الساعة الثانية بعد الظهر ، وغرفته هذه المرة تغصّ بالضوء . كان ثمة ستارة شفافة على النافذة . وكانت الغرفة حارة جداً .

دعاني إلى الجلوس ، ثم أبلغني في كثير من الأدب أنه «نظراً لظروف خاصة» لم يستطع محاميَّ أن يحضر . وأضاف أن ذلك يسمح لي ألا أجيب عن أسئلته إلى حين حضور المحامي .

أجبت أنني أستطيع أن أجيب دون محام . فضغط على زر كهربائي على منضدته فتقدم كاتب شاب جلس وراء ظهري . ثم استرخى كلانا ـ قاضي التحقيق وأنا ـ في مقعدينا وبدأ الاستجواب . قال إنهم يصفونني بأنني إنسان صموت ، مغلق على نفسه ، وأنه يحب أن يعرف رأيي في ذلك . فأجبت :
ـ حسناً ، نادراً ما يكون لديَّ شيء كثير أقوله . فطبيعي بعد ذلك أن أحتفظ بفمي مغلقاً .

فابتسم مثلما ابتسم في المرة الأولى ، واعترف بأن ذلك خير الأسباب .

وأضاف :

ـ وعلى أية حال ، فلا أهمية لذلك على الاطلاق .

انحنى إلى الأمام بعد لحظات فجأة ، وحدق في عينيَّ ، وقال ، وقد رفع نبرة صوته قليلاً :

ـ إن ما يهمني حقاً هو ـ أنت !

لم أفهم جيداً ما كان يقصد ، فما أعطيته جواباً .

تابع يقول :

ـ ثمة أشياء عديدة تحيِّرني في جريمتك . أنا واثق أنك ستساعدني على فهمها .

ولما أجبته أن الأمر في غاية السهولة سألني أن أعطيه وصفاً مفصلاً لما فعلت ذلك النهار . كنت رويت له ذلك في مقابلتنا الأولى ـ ولكن بصورة مختصرة تقريباً ـ ريمون ، والشاطيء ، وسباحتنا ، والشجار ، ثم الشاطيء مرة أخرى ، والطلقات الخمس التي أطلقت . كررت ذلك من جديد ، فكان يقول بعد كل جملة : «حسناً ، حسناً» ، ويومىء برأسه . ولما وصفت له الجسد المستلقي على الرمال أومأ برأسه إيماءة معبّرة ، وقال : «حسناً !» . وقد أتعبني أن أعيد القصة ذاتها ، وشعرت أنه لم يسبق لي أن تكلمت بهذا المقدار من قبل قط .

نهض بعد صمت قصير وقال إنه يريد أن يساعدني . فأنا أثير اهتمامه ، ولسوف يفعل شيئاً من أجلي في محنتي بعون الله . ولكنه مضطر ، قبل ذلك ، إلى إلقاء عدة أسئلة أخرى .

بدأ حديثه بأن سألني باقتضاب إن كنت أحببت أمي .

أجبت :

ـ أجل . مثلما يحب الآخرون أمهاتهم .

ولا ريب أن الكاتب الذي يجلس وراء ظهري يضرب على الآلة الكاتبة بانتظام أخطأ الآن ، فقد سمعته يصلح آلته ويعيد ضرب الكلام الذي به تفوهت .

وسألني القاضي سؤالاً آخر من دون أي منطق ظاهر :

ـ لماذا أطلقت خمس طلقات تباعاً ؟

فكرت قليلاً ، ثم شرحت أنها لم تكن تباعاً . فقد أطلقت أول طلقة ، ثم أتبعتها بعد فترة بأربع طلقات أخرى .

ـ لماذا انتظرت بين الطلقة الأولى والطلقة الثانية ؟

رأيت المشهد كله يخطر أمام عيني مرة أخرى ، وهج الشاطيء الأحمر ، والإحساس بتلك الأنفاس اللاهبة على وجنتيَّ ـ ولكنني لم أجب هذه المرة بشيء .

خلال فترة الصمت التي أعقبت ذلك ظلَّ قاضي التحقيق مهتاجاً ، يخلّل شعره بأصابعه ، فينهض عن كرسيه ثم يعود فيجلس عليه من جديد . وأخيراً زرع مرفقيه على المنضدة ، وانحنى نحوي قليلاً وعلى وجهه تعبير غريب .

ـ لكن لماذا ، لماذا تابعت إطلاق النار على جسد رجل مسجىً على الأرض ؟

وهنا أيضاً لم أجد جواباً عن سؤاله .

أمرَّ القاضي يده على جبهته ، وكرّر في نبرة مختلفة :

ـ أسألك لماذا ؟ وأصرُّ على أن تجيبني .

فظللت معتصماً بالصمت .

نهض فجأة ، ومشى إلى خزانة إضبارات تنتصب على الجدار المقابل ، وفتح درجاً هناك ، وتناول منه مسيحاً مصلوباً من الفضة راح يؤرجحه وهو يعود إلى منضدته .

ـ هل تعرف هذا من يكون ؟

كانت طبقة صوته قد تغيرت تماماً . إنها تعجّ بالعاطفة .

أجبت :

ـ أكيد أني أعرفه .

أجفله ذلك . وبدأ يتحدث في سرعة عظيمة . قال لي إنه يؤمن بالله ، وإن أكثر الخطاة سوءاً يمكن أن ينالوا صفحه رغفرانه . ولكنه ينبغي أن يتوب أولاً ، وأن يصير أشبه بالطفل الصغير ، وأن يحمل قلباً بسيطاً صادقاً يتقبل الأدلة والحجج التي يمكن أن تقنعه . كان ينحني على المنضدة يحرك صليبه أمام عينيّ .

والحقيقة أني وجدت صعوبة بالغة في تتبع ملحوظاته ، أولاً لأن المكتب كان خانقاً وذبابات كبيرة تؤزُّ هنا وهناك وتقف على وجنتي ، وثانياً لأن حديثه يخيفني . أكيد أني تحققت أن من السخف أن أشعر بذلك ، لأنني أنا ، بعد كل شيء ، كنتُ مجرماً . وعلى أية حال ، فقد بذلت جهدي وهو يتحدث أن أفهم مغزى كلماته ، فتبين لي أن ثمة نقطة واحدة في اعترافي تحتاج إلى إيضاح ـ ألا وهي كوني انتظرت لأطلق طلقة المسدس للمرة الثانية . أما الباقي فكان جيداً ، لكنه لم يكن يفهم هذا .

بدأت أقول له إنه مخطىء في إصراره على هذه الناحية . فهذه النقطة لم تكن ذات أهمية كبرى . ولكنه قاطعني قبل أن أنطق بهذه الكلمات ، وشرع يسألني في حماسة ما إذا كنت أؤمن بالله . ولما أجبته بالنفي ترامى ساخطاً في كرسيه .

قال إن ذلك مستحيل ، وإن جميع الناس يؤمنون بالله حتى الذين يتجنبونه . وكان واثقاً من ذلك تماماً . ولو ارتاب به يوماً لفقدت حياته كلّ معنى .

سأل ساخطاً :

ـ هل تريد أن تكون حياتي عديمة المعنى ؟

لم أستطع أن أفهم علاقة رغباتي في ذلك ، وقلت له هذا .

بينا أنا أخاطبه دسّ المصلوب مرة أخرى تحت أنفي ، وصاح :

ـ أنا ، على أية حال ، مسيحي . وألتمس منه أن يغفر لك خطاياك . أيها الرجل المسكين الفتيُّ ، كيف تستطيع ألا تؤمن أنه تعذب من أجلك ؟

أدركت أنه كان يرفع الكلفة ما بيننا عندما قال : «أيها الرجل المسكين الفتيّ» ـ ولكنني كنت تعبت من ذلك . وكانت حرارة الغرفة تزداد شيئاً فشيئاً .

ادعيت أني أوافق على رأيه مثلما أفعل دائماً عندما أحب أن أتخلص من شخص يزعجني حديثه . فأضاء وجهه ، الأمر الذي شدهني .

ـ أنت ترى ! أنت ترى ! ألا تريد أن تعترف الآن أنك تؤمن وتضع ثقتك فيه ؟

لا ريب أني هززت رأسي مرة أخرى ، لأنه غرق في مقعده مترهلاً مكتئباً .

خيّم الصمت برهة كان الكاتب خلالها ينهي ضرب آخر جملة من الحديث الذي دار بيننا . ثم حملق فيَّ في انتباه وشيء من الحزن .

قال في نبرة خافتة :

ـ ابداً لم أعرف في حياتي كلها نفساً معذبة كنفسك . فالمجرمون الذين مروا أمامي حتى الآن كانوا يبكون عندما يشاهدون رمز آلام سيدنا المسيح .

كنت على أهبة أن أرد عليه قائلاً إنهم كانوا مجرمين . ولكنني فكرت أنني أنا أيضاً ، غدوتُ مثلهم . وكانت هذه فكرة لم أستطع تقبّلها .

نهض القاضي دلالة على أن الاستجواب انتهى . وطرح عليَّ ، بالنبرة المتعبة ذاتها ، سؤاله الأخير : هل أنا نادم على ما اقترفت يدي ؟

فكرت قليلاً ، وقلت إن ما أشعر به هو نوع من الإزعاج أكثر منه نوع من

الندم ـ لم إستطع أن أجد كلمة أفضل من هذه . وبدا لي أنه لم يفهم . هذه هي الأمور التي حدثت في استجواب ذلك النهار ..

مثلت أمام قاضي التحقيق عدة مرات بعد ذلك ، وكان محامي يصحبني دائماً . كان الاستجواب يتعلق بسؤالي عن إيضاح إفادتي السابقة . أو كان القاضي والمحامي يناقشان بعض الحجج . في تلك اللحظات لم يكونا يعيراني أقلّ التفات ، وكانت نبرة الاستجواب ، على أية حال ، قد اختلفت مع مرور الأيام . وبدا لي أن القاضي فقد اهتمامه بي ، وأنه وصل إلى قرار نهائي في قضيتي . لم يعد يذكر الله أو يتحدث في الأمور الدينية التي أربكتني في مقابلتي الأولى . والنتيجة أن علاقاتنا أمست أكثر ودية . فبعد عدد من الأسئلة ، يتبعها بعض النقاش مع المحامي ، ينهي القاضي التحقيق . وراحت قضيتي «تتخذ مجراها» على حدّ تعبيره . والمناقشة تتخذ ، في بعض الأحيان ، طابع حديث عام ، ويشجعني القاضي والمحامي على الاشتراك فيها . وبدأت أتنفس في حرية أكثر . ولم يبد أي منهما ، في هذه الأوقات ، شيئاً من العداء تجاهي ، فسارت الأمور على خير ما يرام ، في وداد ، بحيث رحت أشعر هذا الشعور المضحك ، ألا وهو أني «غدوت فرداً من أفراد العائلة» . وأستطيع أن أقول صادقاً إنني ، خلال الأحد عشر شهراً التي استغرقتها هذه الاستجوابات ، شُدهت من أنني لم أبتهج قط بشيء أكثر من ابتهاجي بتلك اللحظات النادرة التي كان القاضي يقودني فيها إلى باب مكتبه وهو يربّت على كتفي ويقول في نبرة ودية :

ـ حسناً ، أيها المنكر للمسيح ، هذا يكفينا اليوم !

وكنت أُسْلَمُ بعدها إلى حراسي .

٢

هنالك أمور لم أحبّ أن أتحدث عنها قط . وقد قررت ، بعيد عدة أيام من إرسالي إلى السجن ، أن نمط حياتي هذا كان واحداً من تلك الأمور . وبدأت أشعر على أية حال ، والأيام توالي سيرها العادي ، أن هذا النفور ليست له أهمية على الاطلاق . والواقع أنني خلال هذه الأيام القليلة الأولى لم أكن أشعر أنني نزيل سجن ، بل كنت أنتظر في غموض حدثاً ما ، مفاجأة سارة . حدث هذا التبدُّل بعد زيارة ماري الأولى والوحيدة . فمنذ اليوم الذي وصلتني فيه رسالتها التي تعلن فيها أنهم لن يسمحوا لها بزيارتي مرة أخرى لأنها لم تكن زوجتي ـ منذ ذلك اليوم أحسست أن هذه الزنزانة هي بيتي الأخير ، أو كما يقولون البيت الذي أنتقل منه إلى العالم الآخر .

وضعوني يوم توقيفي في غرفة أكبر من هذه كان فيها عدة موقوفين ، معظمهم من العرب . وقد ضحكوا عندما رأوني أدلف إلى الغرفة ، وسألوني ماذا فعلت . رويت لهم أنني قتلت عربياً ، فجنحوا إلى الصمت فترة من الوقت . وسرعان ما هبط الليل ، فشرح لي أحدهم كيف أرتب الحصير الذي سأنام عليه . إن أنا طويت أحد طرفيه جعلت من ذلك وسادة . وشعرت طوال الليل بجيش من البق يزحف على وجهي .

نقلت بعد عدة أيام إلى زنزانة مفردة رحت أنام فيها على لوح خشبي معلق

بالجدار . وكان في الغرفة سطل أستعمله كمرحاض وحوض من التنك . كان السجن في مكان مرتفع من المدينة ، وكنت أستطيع من نافذتي أن أمدّ بصري إلى البحر . وذات يوم كنت متعلقاً بقضبان النافذة الحديدية ، وقد أرسلت عينيَّ صوب ضوء الشمس المتراقص على الأمواج ، فدخل عليّ الحارس وقال إن أحدهم جاء لزيارتي . وفكرت أنها قد تكون ماري ، وكانت هي فعلاً .

اجتزت إلى قاعة الزوار رواقاً طويلاً ، ثم سلماً قصيراً ، ومن بعد رواقاً آخر . كانت القاعة فسيحة الجنبات ، يدخل إليها الضوء من نافذة كبيرة ، وقد قسمت إلى ثلاثة أقسام بحاجزين حديديين مرتفعين يقطعانها عرضانياً . وبين هذين الحاجزين ثغرة في حدود ثلاثين قدماً تفصل بين المساجين وزوارهم . قادوني إلى نقطة قبالة ماري تماماً ، وكانت ترتدي ثوبها المخطط . وكان عن جانبيَّ حوالي عشرة من المساجين الآخرين ، أغلبهم من العرب . وإلى جانب ماري كان ثمة عدد من النساء المغربيات . كانت تقف بين امرأة عجوز قصيرة مزمومة الشفتين ، وأخرى سمينة ، عارية الرأس ، تتحدث في صوت حاد وتأتي كثيراً من الحركات بيديها . ولما كانت المسافة بعيدة بين الزوار والمساجين وجدت نفسي مرغماً على الحديث بصوت عال .

عندما دخلت كان ضجيج الأصوات يتردّد على الجدران العارية ، وأشعة الشمس تتسلل إلى الغرفة فتغمر كل شيء بضوء أبيض عنيف ، فأكاد أصاب بالدوار . واضطررت بعد تلك الظلمة المألوفة والصمت المطبق في زنزانتي إلى لحظات قصيرات لأعتاد هذه الأوضاع الجديدة . واستطعت بعد فترة أن أرى كل وجه بوضوح وقد غمرته موجة من شعاع النهار .

رأيت ضابطاً من ضباط السجن يجلس عند كل من طرفي الفسحة بين الحاجزين . كان المساجين العرب وعائلاتهم يجلسون القرفصاء عند كل من طرفي الحاجزين ، قبالة بعضهم بعضاً . ولم يكن أحدهم يرفع صوته ، فهم

يستطيعون التفاهم ، رغم الضجيج ، بأصوات تكاد تكون همساً . وكانت هذه الهمهمة من الأصوات ، المنطلقة من الأسفل ، تشكل نوعاً من الترجيع المتواصل للأحاديث المنعقدة فوق رؤوسهم . وعيت ذلك كله في سرعة ، وتقدمت خطوة صوب ماري . كانت تضغط وجهها الأسمر الذي لوّحته الشمس على القضبان ، وتبتسم بكل قواها . أحسبني وجدتها رائعة الجمال ، ولكنني عجزت عن أن أوضح لها ذلك .

سألتني في صوت مرتفع النبرة :

- حسناً ؟ كيف حالك ؟ هل أنت على ما يرام ، وهل لديك كلّ ما تحتاج إليه ؟

- أوه ، أجل . لديّ كل ما أحتاج إليه .

لجأنا إلى الصمت فترة . وظلت ماري تبتسم . وكانت المرأة السمينة تصرخ بالسجين الملاصق لي ، ويبدو أنه زوجها ، وهو رجل طويل ، أشقر ، حلو الطلعة .

صرخت :

- لقد رفضت جان أن تأخذه ...

فأجاب الرجل :

- هذا سيىءٌ حقاً .

- بلى . وقلت لها إنك ستأخذه حالما تخرج ، ولكنها لم تسمع ذلك .

وصرخت ماري عبر الثغرة قائلة إن ريمون حملها تحياته لي ، فقلت :

- شكراً .

وغرق صوتي في خضم السؤال الذي طرحه جاري :

- هل هو في صحة جيدة ؟

فضحكت المرأة السمينة :

- صحة جيدة ؟ لا ريب أنه كذلك ! إنه في أكمل صحة .

في تلك الأثناء كان السجين الملاصق من اليسار ، وهو شاب ناعم اليدين رقيقهما ، صامتاً لا ينبس بحرف . ورأيت أن عينيه تركزتا على المرأة العجوز القصيرة التي تقابله ، بينا هي تردُّ له نظرته في شيء من هوى جائع . ولكنني حوّلت نظري عنهما . كانت ماري تصرخ لي قائلة إنه ينبغي ألا تفقد الأمل .

أجبتها بقولي :

- أكيد .

سقطت نظرتي على كتفيها ، فأخذتني رغبة مفاجئة في عصرهما من فوق ردائها الرقيق . لقد خبلني قماشه الحريري الناعم ، فأحسست أن الأمل الذي تحدثت عنه قد تجمّع فيه . وتصورت شيئاً من هذا القبيل يدور في خاطر ماري أيضاً لأنها كانت تبتسم وهي ترنو إليّ .

- سينتهي كل شيء على خير ، وسترى ذلك . ومن بعد سنتزوج .

لم أعد أرى منها غير تألق أسنانها الأبيض ، والثنيات الصغيرة حول عينيها . فأجبت :

- هل تظنين ذلك حقاً ؟

أنا لم أفه بذلك إلا لمجرد إحساسي بوجوب أن أقول شيئاً .

راحت تتحدث في عجلة متزايدة وصوت مرتفع الغنّة :

- بلى ، سوف يحكمون ببراءتك . سنذهب للسباحة مرة أخرى أيام الآحاد .

كانت المرأة إلى جانب ماري لا تبرح تصيح ، وتروي لزوجها أنها تركت له سلة في مكتب السجن . وعدّدت له الأشياء التي وضعتها في السلة وطلبت إليه التدقيق جيداً أثناء استلامها لأن بعض الأشياء تكلفت مبالغ باهظة . وكان جاري الشاب الآخر وأمه لا يزالان يتبادلان نظرات مكتئبة ، في حين أن همس المواطنين الآخرين يتردد من تحتنا . ويبدو أن الضوء في الخارج شرع يصطخب

على النافذة ، ويتسلل إلينا فيلطخ وجوه الناس الذين يقابلون النافذة بمسحة من زيت أصفر اللون .

بدأت أشعر بالقرف والغثيان ، وأتمنى أن أنتهي من هذه المقابلة . كانت الأصوات المترددة عن جانبي تؤلم أذنيَّ . ولكنني كنت أودّ ، من جهة أخرى ، أن أعبَّ من وجود ماري قدر المستطاع . ولا أعلم الوقت الذي مرّ . أذكر أن ماري وصفت لي عملها ، وتلك الابتسامة الحلوة تمرح على وجهها . وكانت الضجة، والصيحات ، والأحاديث تطغى على كل شيء . وكانت واحة الصمت الوحيدة هي ذلك الشاب وتلك العجوز اللذين يترانيان بلا انقطاع .

بعيد ذلك اقتيد العرب واحداً بعد الآخر . وخيَّم الصمت على الجميع بعد ذهاب أول مسجون منهم . وضغطت المرأة العجوز القصيرة نفسها على القضبان ، وفي الوقت ذاته ربَّت الحارس على كتف ولدها . صاح :

ـ وداعاً ، يا أماه .

فأمرت يدها خلال القضبان ، ولوَّحت له بحركة صغيرة بطيئة .

لم تكد المرأة تخرج حتى أخذ مكانها رجل يحمل قبعة في يده . وجيء بمسجون إلى المكان الذي فرغ إلى جانبي ، وبدأ الاثنان حديثاً نشيطاً ـ في صوت خفيض لأن القاعة استعادت صمتها المألوف . وجاء أحدهم واقتاد الرجل عن يساري ، فصاحت به امرأته ـ يبدو أنها لم تلحظ أنه لم يعد ثمة ضرورة للصراخ :

ـ اعتن بنفسك ، يا عزيزي ، ولا تأت عملاً طائشاً !

جاء دوري بعد ذلك . فأرسلت لي ماري قبلة . التفت الى الوراء وأنا أبتعد . إنها لم تتحرك ، ووجهها منضغط على القضبان ، وشفتاها تفتران عن ابتسامة متشنجة ممزقة .

وما أسرع أن وصلتني منها رسالة . ومنذ تلك اللحظة بدأت الأمور التي لم

أكن أحب التحدث عنها على الاطلاق ، ليس لأنها رهيبة بصورة خاصة ، بل لأني لم أكن أرغب في المبالغة . فلقد قاسيت أقل مما قاسى الآخرون . ورغم ذلك كان ثمة شيء واحد في تلك الأيام الأولى صعباً عليَّ : اعتيادي على التفكير مثل رجل حرٍّ .

كانت تتملكني على غير انتظار ، مثلاً ، رغبة في الذهاب إلى الشاطىء للسباحة ، وأن أتخيَّل صوت الأمواج عند قدميَّ ، ومن بعد ذلك الشعور الناعم بالماء يلامس جسدي وأنا أهوي فيه ، وذلك الاحساس الرائع بالراحة والارتخاء الذي يبعثه في المرء . وكانت ذكرى البيت في تلك الزنزانة الضيقة تئيد عليَّ أكثر من أي شيء آخر .

استمَّر ذلك بضعة أشهر ، وبعد ذلك تملكتني الأفكار التي تسيطر على كل سجين . كنت أنتظر النزهة اليومية في الساحة ، أو زيارة محاميّ . وكنت أتدبر أمري جيداً فيا يتبقى من الوقت . وكنت أفكر غالباً أنهم لو وضعوني لأعيش في جذع شجرة يابسة ، دون أن يشغلني شيء غير التحديق في رقعة السماء فوق رأسي ، لاعتدت ذلك تدريجياً . كنت تعلّمت إذن أن أراقب مرور الطيور أو تسيار السحب ، مثلما اعتدت أن أراقب ربطة عنق محاميّ غريبة الشكل ، أو بكلمة أخرى ـ أن أنتظر على تَوْقٍ مجيء نهار الأحد لأمارس الحب مع ماري . حسناً ، فأنا لم أُحشر هنا في جذع شجرة . ففي العالم أناس آخرون أكثر مني شقاء . وتذكرت أن هذه الفكرة كانت إحدى اراء أمي ـ وكانت ترددها دائماً ـ بشكل يرغم الانسان على آن يعتاد على كل شيء .

ومهما يكن من أمر فأنا لم أسترسل عادة في التفكير بهذه الأمور إلى هذا الحد . كانت الأشهر الأولى قاسية من دون ريب ، غير أن المجهود الذي ينبغي عليَّ أن أقوم به ساعدني على تحملها . كان يعذبني ، مثلاً ، شوقي إلى المرأة ـ وهو أمر طبيعي جداً بالنسبة إلى عمري . لم أكن أفكر في ماري بشكل

خاص . كان يوجعني التفكير في هذه المرأة أو تيك ، وفي جميع النساء اللواتي عرفت ، وفي جميع المناسبات التي أحببتهنّ فيها ، حتى أن زنزانتي تعجّ بوجوههنّ ، وبأشباح رغباتي وشهواتي القديمة . وقد أثارني ذلك من دون ريب ، ولكنه كان يقتل الوقت على أقل تقدير .

انتهيت تدريجياً إلى كسب ودّ رئيس الحرس الذي يشرف على توزيع الطعام . وهو الذي حدثني عن النساء . قال لي :

ـ هذا هو الشيء الذي يتذمر منه جميع الرجال هنا أكثر من أي شيء آخر .

فقلت له إنني أشعر مثل شعورهم تماماً . وأضفت :

ـ وهذا ليس من العدالة في شيء . إنه أشبه بأن تضرب رجلاً مصروعاً .

فقال :

ـ هذا هو لبّ الموضوع كله . لهذا السبب يضعونكم ، أيها الفتيان ، في السجن .

ـ كيف ذلك ؟

ـ الحرية تعني هذا . إنهم يحرمونكم حريتكم .

لم أكن فكرت في الأمر على هذا الغرار ، ولكنني وافقته على رأيه . قلت :

ـ هذا صحيح . وإلا لن يكون ذلك عقاباً .

فأومأ رئيس الحرس ، قائلاً :

ـ بلى ، تختلف أنت عن الآخرين . فأنت تستخدم عقلك . أما الآخرون فلا يفعلون . ولكن هؤلاء يجدون لأنفسهم مخرجاً . ويجدونه من تلقاء نفوسهم .

غادر رئيس الحرس زنزانتي . وفي اليوم التالي فعلت مثلما يفعل الآخرون .

كان نقص اللفائف محنة أخرى أيضاً . عندما دخلت السجن أخذوا حزامي ، ورباط حذائي ، ومحتويات جيوبي بما في ذلك لفائفي . وحين دخلت زنزانتي طلبت أن يردوا لي لفائفي . كان التدخين ممنوعاً . هذا ما قالوا لي .

خاص . كان يوجعني التفكير في هذه المرأة أو تيك ، وفي جميع النساء اللواتي عرفت ، وفي جميع المناسبات التي أحببتهنّ فيها ، حتى أن زنزانتي تعجّ بوجوههنّ ، وبأشباح رغباتي وشهواتي القديمة . وقد أثارني ذلك من دون ريب ، ولكنه كان يقتل الوقت على أقل تقدير .

انتهيت تدريجياً إلى كسب ودّ رئيس الحرس الذي يشرف على توزيع الطعام . وهو الذي حدثني عن النساء . قال لي :

ـ هذا هو الشيء الذي يتذمر منه جميع الرجال هنا أكثر من أي شيء آخر .

فقلت له إنني أشعر مثل شعورهم تماماً . وأضفت :

ـ وهذا ليس من العدالة في شيء . إنه أشبه بأن تضرب رجلاً مصروعاً .

فقال :

ـ هذا هو لبّ الموضوع كله . لهذا السبب يضعونكم ، أيها الفتيان ، في السجن .

ـ كيف ذلك ؟

ـ الحرية تعني هذا . إنهم يحرمونكم حريتكم .

لم أكن فكرت في الأمر على هذا الغرار ، ولكنني وافقته على رأيه . قلت :

ـ هذا صحيح . وإلا لن يكون ذلك عقاباً .

فأومأ رئيس الحرس ، قائلاً :

ـ بلى ، تختلف أنت عن الآخرين . فأنت تستخدم عقلك . أما الآخرون فلا يفعلون . ولكن هؤلاء يجدون لأنفسهم مخرجاً . ويجدونه من تلقاء نفوسهم .

غادر رئيس الحرس زنزانتي . وفي اليوم التالي فعلت مثلما يفعل الآخرون .

كان نقص اللفائف محنة أخرى أيضاً . عندما دخلت السجن أخذوا حزامي ، ورباط حذائي ، ومحتويات جيوبي بما في ذلك لفائفي . وحين دخلت زنزانتي طلبت أن يردوا لي لفائفي . كان التدخين ممنوعاً . هذا ما قالوا لي .

لربما كان ذلك ما هدّني . والحقيقة أنني قاسيت كثيراً خلال الأيام الأولى القليلة ، بل اقتلعت بعض شظايا سريري وجعلت أمصها . وكنت أشعر طوال النهار بما يشبه الاغماء والغثيان . لم أكن أفهم لماذا يمنعونني عن التدخين . فذلك لا يسيىء إلى أحد . وفهمت فيما بعد الفكرة الكامنة وراء ذلك . كان هذا الحرمان جزءاً من عقابي . ولكنني فقدت في خلال هذه الفترة عادة التدخين ، فلم يعد ذلك عقاباً بالنسبة إليَّ .

فيما عدا هذه الازعاجات لم أكن شقياً أكثر مما ينبغي . كانت المشكلة كلها تتلخص فيما يلي : كيف أقتل الوقت . ومهما يكن من أمر ، فقد تعلمت بعد فترة كيف أتذكر الأمور ، فلم أعد أشعر بالضجر على الاطلاق . كنت أمتحن ذاكرتي أحياناً بالتفكير في غرفة نومي ، فأبدأ من إحدى زواياها ، وأقوم بجولة فيها ، وأعدّد جميع الأشياء التي رأيتها خلالها . كان ذلك يتم في دقيقة أو دقيقتين أول الأمر ، ولكن الوقت شرع يطول قليلاً كلما أعدت هذه التجربة . كنت أعمد إلي تذكر كل قطعة أثاث ، وكل ما عليها أو في داخلها من أشياء ، ومن بعد كل تفصيل من هذه الأشياء ، وفي النهاية كل تفصيل من هذه التفاصيل : كل نقر طفيف ، أو تقشر ، أو طرف مشقوق ، ودقة التعريق واللون . وأرغمت نفسي في الوقت ذاته على أن أحفظ هذا الجرد في ذهني من البداية حتى النهاية ، بالتسلسل ، ودون أن أحذف أي شيء ، بشكل يتيح لي أن أقضي ، بعد عدة أسابيع ، ساعات بطولها في إحصاء موجودات غرفة نومي . ووجدت أنني كلما أمعنت في التفكير ضاعت من ذاكرتي تفاصيل نصف منسية . وبدا لي أنه لا نهاية لهذه الأشياء .

وهكذا تعلمت أن الانسان يستطيع ، حتى بعد تجربة يوم واحد في العالم الخارجي ، أن يعيش بسهولة مئة عام في السجن . لا بدّ أنه اختزن ما يكفي من الذكريات كيلا يضجره السأم . وقد كان هذا مكافأة له إلى حدّ ما .

٦

ثم كان هنالك النوم . كنت أول الأمر أنام نوماً مؤرقاً في الليل ، ولا أنام في النهار أبداً . وتحسنت لياليّ تدريجياً ، وصرت أنام في النهار أيضاً . ولا ريب أنني كنت أنام خلال الأشهر الأخيرة ، من ست عشرة إلى ثماني عشرة ساعة من أصل أربع وعشرين . وهكذا يتبقى لي ست ساعات ينبغي إشغالها ـ وكنت أشغلها بالطعام ، وقضاء الحاجات الطبيعية ، وذكرياتي ... وقصة التشيكوسلوفاكي .

ذات يوم ، وأنا أبحث في قش فرشتي ، عثرت على قصاصة من صحيفة ملصقة بالقماش. كانت الصحيفة صفراء من مرور الأيام ، شفافة ، ولكنه يمكن قراءة الحروف عليها . كانت قصة جريمة . وكان مطلعها ناقصاً ، ولكن الانسان يستطيع أن يخمن أن مسرحها كان في احدى قرى تشيكوسلوفاكيا . غادر أحد الفلاحين بيته سعياً وراء الثروة . وبعد خمس وعشرين سنة ، وكان جمع ثروة محترمة ، رجع إلى قريته مع زوجته وولده . في هذه الأثناء كانت أمه وشقيقته تديران فندقاً في مسقط رأسه . خطر له أن يفاجئهما ، فترك زوجته وابنه في فندق آخر ، وذهب يقيم في فندق أمه حيث استأجر غرفة تحت اسم مستعار . لم تعرفه أي من أمه أو شقيقته . فأراهما عند العشاء تلك الليلة مبلغاً ضخماً من المال يحمله ، فقتلتاه خلال الليل بمطرقة ، وسرقتا المال ، ورمتا جسده في النهر . وجاءت زوجته صباح اليوم التالي وكشفت هوية زوجها دون أن تعرف شيئاً عن الحادث . فشنقت الأم نفسها . وألقت الأخت بنفسها في بئر . ولا بدّ أني قرأت هذه القصة آلاف المرات . كانت غير محتملة من ناحية ، وطبيعية جداً من ناحية ثانية . وعلى أية حال ، فقد كنت أجد ذلك الرجل باحثاً عن المتاعب ، فلا ينبغي على المرء أن يلعب مثل هذه الأدوار السخيفة .

وهكذا كانت الأيام تنزلق بين ساعات النوم ، وذكرياتي ، وقراءة تلك الصحيفة ، وموجات الضوء والظلمة . وكنت قرأت قبلاً أن المرء في السجن يفقد

فكرة الزمن . لكن هذا لم يكن ذا معنى كبير بالنسبة إليَّ . فلم أكن فهمت كيف تكون الأيام طويلة وقصيرة في وقت واحد . طويلة باعتبارها فترات يعيشها المرء ، ولكنها من شدة الطول بحيث تنتهي إلى أن يطفو بعضها على بعض . الحقيقة أنني لم أفكر في الأيام على هذا الغرار . كانت كلمتا «الأمس» و «غداً» الشيء الوحيد الذي احتفظ في رأيي بمعنى ما .

يوم أخبرني الحارس مرة أنه مرَّ عليَّ في السجن ستة شهور صدَّقته ـ لكن كلماته لم تحتفظ بأي أثر في ذهني . ففي نظري كان ذلك اليوم واحداً لم يتبدل منذ دخولي إلى الزنزانة ، وأنني لم أكن أفعل أكثر من الأشياء ذاتها طوال ذلك الوقت .

ولم يكد الحارس يتركني حتى نظفت إنائي المصنوع من التنك جيداً ودرست وجهي على صفحته . كانت صورتي المعكوسة جدّية بشكل مخيف حتى حين حاولت أن أبتسم . وحملت الاناء في زوايا مختلفة ، فلم يكن يعكس غير ذات الوجه بتعبيره الحزين المتوتر .

كانت الشمس تتطفَّل ، وهي تلك الساعة التي لا أحب أن أتحدث عنها ـ «الساعة التي لا تحمل اسماً» ، كما أطلقت عليها ـ حين تزحف أصوات المساء من جميع بوابات السجن من جميع الجهات . اقتربت من النافذة المشبكة بالحديد ، ورميت نظري على ضوء آخر شعاعات النهر إلى انعكاس وجهي على الاناء . كان الوجه صارماً ما يزال ، مثله قبلاً . لم يدهشني ذلك ، فقد كنت جاداً في تلك اللحظة . وسمعت في الوقت ذاته شيئاً لم أسمعه منذ شهور عديدة . كان صدى صوتٍ ، صوتي أنا ، لا ريبة في ذلك . وعرفت فيه ذلك الصوت الذي كان يرنُّ في أذنيَّ كثيراً كل يوم مؤخراً . وأدركت عندها أنني كنت أحدث نفسي طوال الوقت .

تذكرت شيئاً قيل لي مرة ، ملحوظة أبدتها لي الممرضة في جنازة أمي . كلا ،

لم يكن ثمة مخرج ، ولا يستطيع أحد أن يتصور كيف تكون الأمسيات في السجن .

٣

لا أستطيع أن أقول ، على وجه الاجمال ، إن تلك الشهور مرّت في بطء . كان ثمة صيف آخر يقترب منا قبل أن أدرك أن الصيف الماضي ولّى أدراجه . وكنت أعرف أن ثمة شيئاً جديداً بالنسبة إليَّ سيحدث مع قدوم الأيام الحارة الأولى . كانت قضيتي مسجلة في الدورة الأخيرة من دورات محكمة الجنايات العليا ، وكانت تلك الدورة ستنتهي مع نهاية شهر حزيران .

كان اليوم الذي بدأت فيه رؤية قضيتي يوماً مشمساً . وأكد لي وكيلي أن المحاكمة ستستغرق يومين أو ثلاثة أيام . وأضاف :

ـ سمعت أن المحكمة ستنظر قضيتك بأسرع ما يمكن ، لأنها ليست أهم قضية في قائمة الدعاوى . فثمة قضية قتل أبوي سينظر فيها بعد قضيتك فوراً ، وقد يطول أمدها .

جاؤوا إليَّ في الساعة السابعة والنصف صباحاً ، ونقلوني إلى قصر العدل في سيارة السجن . أدخلني الشرطيان إلى غرفة صغيرة تنبعث منها رائحة العتمة . وجلسنا قرب باب تدقُّ من خلاله أصوات ، ونداءات ، وضجيج مقاعد على الأرض . إنها ضجة ذكرتني بإحدى تلك الحفلات التي تجري في الأحياء ، حين يروحون يخلون القاعة بعد انتهاء العزف تمهيداً للرقص .

أخبرني أحد الشرطيين أن القضاة لم يحضروا بعد ، وقدم لي لفافة ،

رفضتها . سألني بعد قليل عما إذا كنت أشعر بالاضطراب . فقلت :

ـ كلا ! ان حضور إحدى المحاكمات يثير اهتمامي . فلم يتح لي التفرج على ذلك قبلاً .

قال الشرطي الآخر :

ـ لربما أنت على حق . لكن ما أن تنقضي ساعة أو ساعتين حتى يملّ المرء ذلك .

أزّ بعد قليل جرس كهربائي في القاعة ، فنزعوا الأغلال عن يديَّ ، وفتحوا الباب ، واقتادوني إلى قفص الاتهام .

كانت القاعة تغصُّ بجمهور من الناس ، والستائر مغلقة ، والضوء يتسرّب من بعض الثقوب . وكان الهواء حاراً خانقاً ، والنوافذ مغلقة هي الأخرى . جلست ، ووقف شرطيان عن جانبي مقعدي .

لمحت عندها صفاً من الوجوه الفظة أمامي . كانـوا يحدقـون بقسـوة في وجهي ، فعرفت أنهم القضاة . ولكنني لم أفقه كيف أميّزهم عن بعضهم . أحسست إحساس رجل استطاع أن يركب تراماً ، فراح جميع هؤلاء الناس الجالسون على المقعد أمامه يحدقون فيه على أمل أن يجدوا في مظهره شيئاً باعثاً على التسلية . كنت أعرف جيداً أنها مجرد مقارنة ، لأن ما كان هؤلاء الناس يبحثون عنه ليس شيئاً يبعث على التسلية ، بل أدلة اتهام . ومع ذلك لم يكن الفرق كبيراً. هذه هي ، على أية حال ، الفكرة التي راودتني .

أحسست بشيء من الدوار من جراء هذا الجمهور وحرارة الجو . فأجلت مرة أخرى عيني في قاعة المحكمة ولكنني لم أميّز أياً من الوجوه . لم أؤمن أول الأمر أن جميع هؤلاء الناس جاؤوا لرؤيتي . كان ذلك تجربة جديدة ، أن أكون محطّ أنظار الناس . لم يكن الناس عادة يهتمون بشخصي على الاطلاق . فقلت للشرطي عن يساري :

ـ يا لهذا الجمهور الغفير !

فأعلمني أن الصحف هي سبب ذلك كله . وأشار إلى عدد من الأشخاص جلسوا تحت منصة القضاة تماماً :

ـ هؤلاء هم !

ـ من ؟

ـ الصحف .

وأضاف ان أحدهم صديق له .

بعيد لحظة اتجه ذلك الرجل الذي أشار اليه صوبنا ، فاقترب من قفصنا ، وصافح الشرطيَّ بحرارة . كان الصحافي رجلاً عجوزاً ، مقطب الوجه ، حركاته قريبة إلى القلب . ولحظت عندها أن جميع الموجودين في قاعة المحاكمة يحيُّون بعضهم بعضاً ، ويتبادلون الأحاديث ، ويؤلفون حلقات ـ كما لو كانوا في أحد النوادي التي يلتقي فيها أناس من مشرب واحد . وقد شرح لي هذا ، من دون ريب ، معنى ذلك الانطباع الغريب الذي شعرت به من أنني إنسان زائد هنا ، أو طفيلي إلى حدّ ما .

ومهما يكن من أمر ، فقد حدثني الصحافي بنبرة لطيفة ، وقال إنه يأمل أن تنتهي الأمور نهاية طيبة بالنسبة إليَّ . فشكرته ، فأضاف مبتسماً :

ـ أنت تعرف أننا شهّرنا بك قليلاً . الصيف فصل أجوف بالنسبة إلينا ، ولم يكن لدينا ما نتحدث عنه غير قضيتك والقضية التي تتلوها . لا ريب أنك سمعت بها . إنها قضية قتل أبوي .

ولفت انتباهي إلى أحد الصحفيين ، وهو رجل سمين ، قصير ، يضع نظارتين ضخمتين محاطتين بالسواد ، يترك في نفس من ينظر اليه أنه ابن عرس مسمَّن .

ـ هذا الرجل مبعوث خاص من إحدى الصحف الباريسية اليومية . ولكنه

لم يأت لتغطية أخبار قضيتك . جاء من أجل قضية القتل الأبوي ، ولكنهم طلبوا إليه تزويدهم بأخبارك أيضاً .

كدت أن أقول :

ـ هذا لطف منهم .

ولكنني فكرت أن ذلك سيكون سخيفاً . تركنا وهو يلوّح لي بيده إيماءة ودية ، ولم يحدث شيء طوال دقائق .

دخل محاميَّ في صحبة عدد من زملائه مرتدياً ثوب المحاكمات . اتجه صوب منضدة الصحفيين وصافح عدداً منهم . ظلوا يضحكون ويتنادرون ، في راحة مطلقة ، حتى قرع جرس فاتخذ كل منهم مجلسه . جاء وكيلي إليّ ، وصافحني ، ونصح لي أن أرد على الأسئلة بقدر ما أستطيع من اختصار ، وألا أعطي أية معلومات من تلقاء نفسي ، وأن أعتمد عليه فيما عدا ذلك .

سمعت ضجة مقعد الى يساري ، ورأيت رجلاً طويلاً نحيل العود يضع نظارة على إحدى عينيه راح يمسِّد ثوبه الأحمر وهو يجلس على مقعده . إنه المدعي العام . وأعلن حاجب المحكمة أن القضاة في طريقهم إلى منصتهم ، فشرعت في اللحظة ذاتها مروحتان كبيرتان تضجان في الأعلى . ودخل ثلاثة قضاة ، اثنان يرتديان السواد والثالث القرمزي ، يتأبطون بعض الإضبارات ، ومشوا بسرعة إلى المنصة التي ترتفع عن مستوى أرض القاعة عده أقدام . جلس الرجل القرمزي في الوسط على مقعد عالي الظهر ، ووضع قلنسوته على المنصة ، ومرّر منديلاً فوق جمجمته الصلعاء ، وأعلن أن الجلسة افتتحت .

كان الصحافيون قد أمسكوا أقلامهم على أهبة الاستعداد ، وقد خلعوا على وجوههم جميعاً ملامح اللامبالاة التي لا تخلو من مكر ، بخلاف أحدهم ، وكان يبدو أصغر سناً من رفاقه ، يرتدي ثوباً من الفانلة الرمادية ويضع ياقة عنق زرقاء ، فقد ترك قلمه على المنضدة ، وراح يصرو إليَّ بقسوة . كان وجهه

عادياً مكتنزاً . أما ما لفت انتباهي فهو عيناه : عينان صافيتان شاحبتان ، تتفحصانني ، من دون أن تعبرا عن شيء محدد . وأخذني شعور عجيب طوال لحظة ، فكأنني أتفحص نفسي . ولعل ذلك ـ بالاضافة إلى جهلي بأصول المحاكمات ـ يمكن أن يشرح فشلي في إدراك ما يدور أمامي : اقتراع القضاة ، والأسئلة التي طرحها الرئيس على المدعي العام ، ورئيس المحلفين ، ووكيلي (كانت رؤوس المحلفين تلتفت الى المنصة كلما تحدث) ، والقراءة السريعة لقرار الاتهام الذي سمعت منه أسماء أشخاص وأمكنة ، ثم أسئلة جديدة وجهت إلى وكيلي .

وأعلن الرئيس أن المحكمة ستعلن قائمة شهود الحق العام . فقرأ الحاجب عدة أسماء أدهشتني . وفي قلب الجمهور الذي لم يكن له شكل حتى تلك الساعة رأيت عدة وجوه ضبابية تنهض واحداً بعد الآخر ، ريمون ، وماسون ، وسالامانو ، وبواب المأوى ، وبيريز العجوز ، وماري التي لوحت لي بيدها بإيماءة قصيرة قبل أن تلحق بالآخرين الذين خرجوا من باب جانبي . ورحت أفكر كيف لم أنتبه إلى أي منهم قبل أن أسمع آخر اسم ، وهو اسم سيليست . وبينا هو ينهض رأيت إلى جانبه تلك المرأة الصغيرة الغريبة بمعطفها اللاأنثوي وهيئتها الرشيقة العازمة ، تلك التي جلست الى جانبي في المطعم . كانت تنظر إليَّ نظرة ثابتة . ولكنه لم يتح لي أن أفكر فيها ، فقد بدأ القاضي يتحدّث من جديد .

قال إن الاستجواب سيبدأ ، وإنه لا حاجة على الاطلاق أن يذكّر الحضور بأن يجنحوا إلى هدوء . وشرح أنه ههنا للاشراف على الاجراءات باعتباره حكماً ، وأنه سيلقي على القضية نظرة مدققة متفحصة . وسوف يؤخذ قرار المحكمين بروح العدالة . وأخيراً ، فهو سيضطر إلى إخلاء القاعة لدى أقل حادث .

كانت الحرارة تزداد شدة . وكان بعض الحاضرين يروّحون وجوههم بصحف في أيديهم ، وكانت تتعالى في القاعة أصداء صحف مدعوكة . وأومأ الرئيس إيماءة ، فأحضر الحاجب ثلاث مراوح من القش المجدول شرع القضاة باستخدامها على الفور .

بدأ استجوابي في الحال . فسألني القاضي في هدوء ، بل في شيء من اللطف ، كما خيّل إليّ . وطلب إليّ مرة أخرى أن أعطي تفاصيل هويتي ، فتحققت ، رغم سأمي من هذه الشكليات ، أن الأمر ينبغي أن يسير على هذا المنوال . سيكون خطيراً في آخر المطاف أن تحاكم المحكمة رجلاً لا علاقة له بالموضوع .

كرّر الرئيس عندئذ قصة ما كنت اقترفتُ ، وهو يتوقف بين كل عبارتين أو ثلاث عبارات ليسألني :

ـ أليس كذلك ؟

وكنت أرد عليه قائلاً :

ـ بلى ، يا سيدي .

وكان وكيلي قد علمني ذلك . واستغرق الأمر وقتاً طويلاً ، فقد كان الرئيس يدقق في كل شاردة . في هذه الأثناء كان الصحفيون يكتبون في نشاط . وكنت أحسُّ أحياناً بنظرات أصغرهم منصبة عليّ ، كما أحسُّ بنظرات تلك السيدة الصغيرة الغريبة . وكانت أنظار المحلفين معلقة كلها بذلك القاضي القرمزي ، فتخيلت من جديد صف الركاب المتكومين على مقعد الترام . وسعل هذا سعلة خفيفة ، وقلب بعض صفحات إضبارته ، والتفت نحوي في جفوة وهو يروّح وجهه .

قال إن عليه أن يباشر الآن أسئلة قد يبدو ظاهرها غريباً عن قضيتي ، ولكنها تمسّها عن قرب . ظننت أنه سيتحدث عن أمي ، وشعرت في الوقت ذاته

كم كان ذلك يضايقني . كان سؤاله : لماذا وضعت أمي في المأوى ؟ فأجبت إن السبب بسيطٌ . لم أكن أملك ما يكفي من المال لأحتفظ بها في البيت وأعنى بها . ثم سألني إن سبَّب لي ذلك شيئاً من الألم . فأجبت إنني وأمي لم يكن أحدنا ينتظر شيئاً من الآخر ـ ولا من أي إنسان كان . وهكذا كنا نحن الاثنين قد ألفنا شروط حياتينا الجديدتين . فقال الرئيس عندئذ إنه لم يرغب في الالحاح على هذه النقطة ، وسأل المدعي العام عما إذا كان لديه أية أسئلة أخرى يرغب في طرحها .

كان المدعي العام يوليني ظهره ، فقال ، من دون أن ينظر إليَّ ، إنه يودّ ، إن أذن الرئيس بذلك ، أن يعلم ما إذا كنت رجعت إلى الجدول وفي نيتي أن أقتل العربي . فأجبت بالنفي . وفي هذه الحال ، لماذا حملت المسدس معي ، ولماذا رجعت سريعاً الى ذلك المكان ؟ قلت إن ذلك كان مجرد مصادفة بحتة . فأعلن المدعي العام عندئذ في استياء :

ـ حسناً . هذا كل شيء الآن .

لم أعِ ما حدث بعد ذلك . ولكنه بعد مشاورات قصيرة بين أعضاء المحكمة ، والمدعي العام ووكيلي ، أعلن الرئيس رفع الجلسة الى ما بعد الظهر للاستماع إلى الشهود .

اقتادوني ، قبل أن يتاح لي وقت للتفكير ، إلى سيارة السجن ، فحملتني إليه حيث قدموا لي طعام الغذاء . وبعد وقت قصير رجعوا في طلبي . ونقلوني إلى تلك القاعة ذاتها ، فقابلت الوجوه نفسها ، وعاد كل شيء من جديد . كانت الحرارة أشدّ منها قبلاً ، ولكن المراوح وزعت بمعجزة على الجميع ؛ القضاة ، ووكيلي ، والمدعي العام ، وبعض الصحفيين أيضاً . وكان الصحفي الشاب والمرأة الغريبة جالسين في مكانيهما . لكنهما لم يكونا يحملان مروحة ، بل هما يحدقان فيَّ من غير أن ينبسا بكلمة .

مسحت العرق عن وجهي ، لم أفقه أين أو من أكون أنا إلا عندما سمعت صوتاً ينادي مدير المأوى الى منصة الشهود . وحينما سئل ما إذا كانت أمي تشكو من تصرفاتي قال : «نعم» ، ولكن تلك الشكوى لم تكن تعني شيئاً . فإن أكثر نزلاء المأوى يشكون من أقاربهم . وطلب إليه الرئيس أن يكون أكثر صراحة : هل كانت توبخني لارسالي إياها إلى المأوى ، فأجاب بالايجاب مرة أخرى . ولكنه لم يضف شيئاً على جوابه هذه المرة .

وأجاب عن سؤال آخر أنه أصيب بالدهشة يوم الدفن من جراء هدوئي . ولما سئل عما يقصده «بهدوئي» خفض عينيه وحدّق في حذائه لحظة . ثم أوضح أني لم أشأ رؤية جثمان أمي ، أو أرسل دمعة واحدة ، وأني ذهبت بعد الدفن فوراً من دون أن أركع أمام ضريحها . وقد أدهشه شيء آخر . فقد أخبره أحد مستخدمي الحانوتي أني لم أكن أعرف عمر أمي . وخيَّم صمت قصير . ثم سأله القاضي عما إذا كان تحدث عن هذا السجين في قفص الاتهام . فبدا شيء من الارتباك على المدير ، فقال له الرئيس :

ـ إنه سؤال شكلي . ومن واجبي أن أطرحه .

وسئل المدعي العام عندئذ عما اذا كانت لديه أسئلة يود طرحها ، فأجاب بصوت مرتفع :

ـ لا ، أبداً ! هذا يكفي .

كانت نبرته ونظرة الانتصار التي ارتسمت على وجهه ، وهو يتطلع إليَّ ، ذات تأثير غريب لم أشعر به منذ زمن بعيد . تملكتني رغبة حمقاء في البكاء . فقد أحسست للمرة الأولى كم كان يحتقرني هؤلاء الناس .

بعد أن سأل الرئيس المحلفين ومحاميَّ ما إذا كانت لديهم أسئلة أخرى ، طلب الرئيس دعوة البواب الذي نظر إليَّ وهو يخطو إلى منصة الشهود ، ثم نحّى بصره عني . وأجاب عن الأسئلة فقال إني رفضت رؤية جثمان أمي ،

وأني دخنت ونمت ، وشربت قهوة بالحليب . فشعرت عندها بموجة من الاشمئزاز تنتشر في أرجاء القاعة كلها ، وفهمت للمرة الأولى أني كنت مذنباً . وطلب من البواب أن يعيد سرد ما قاله عن القهوة وتدخيني . واستدار المدعي العام إليَّ مرة أخرى وفي عينيه نظرة سخرية . وسأل وكيلي البواب ماإذا كان، هو أيضاً، قد دخّن معي أم لا. ولكن المدعي العام عارض بشدة في طرح هذا السؤال .

صاح في سخط :

ـ أحب أن أعرف من هو المتهم في هذه المحكمة . أم ترى صديقي هذا يعتقد أنه إذا طعن في أقوال الشاهد سيجرّح الأدلة ، الأدلة الدامغة الكثيرة ، التى تدين موكله ؟

وعلى أية حال ، فقد أمر الرئيس البواب أن يجيب عن السؤال .

تردد البواب قليلاً . ثم تمتم قائلاً :

ـ حسناً ، أنا أعرف أنه لم يكن يجب أن أفعل ذلك . ولكنني أخذت اللفافة من السيد حين عرضها عليَّ ـ من باب الأدب ليس غير .

فسألني القاضي اذا كان لديَّ ما أقول . فأجبت :

ـ كلا ، سوى أن الشاهد على حق .. صحيح أني قدمت له لفافة .

فتطلع إليَّ البواب في دهشة وشيء من عرفان الجميل . ثم تردد قليلاً ، وأعلن أنه هو الذي اقترح عليَّ شرب قليل من القهوة .

فتهلّل محاميَّ ، وقال :

ـ إن المحلفين سيقدرون قيمة هذا التفصيل .

هبَّ المدعي العام على قدميه مرة أخرى على غير انتظار . وصرخ فوق رؤوسنا :

ـ صحيح . إن المحلفين سيقدرون ذلك . وسينتهون إلى أن السجين ، وإن كان أحدهم قدّم له قدحاً من القهوة ، فقد كان من واجبه ، من باب اللياقة

والظرف ، أن يرفض تناوله ، إن لم نقل من باب الاحترام لجثمان تلك المرأة المسكينة التي حملته إلى هذه الحياة .

ورجع البواب ، بعد ذلك ، إلى مقعده .

ونودي على توماس بيريز ، واضطر أحد حجاب المحكمة لمساعدته في الوصول إلى المنصة . أوضح بيريز أنه لم يلتق بي غير مرة واحدة رغم أنه كان صديقاً لوالدتي ، وكان ذلك يوم الدفن . ولما سألوه عن تصرفي في ذلك النهار ردَّ قائلاً :

ـ حسناً ، لقد كنت مضطرباً كما تعلمون . وكان اضطرابي يمنعني عن الانتباه إلى الأمور . كان حزني يعمي عينيَّ على ما أعتقد . كانت هزّة عنيفة وفاة صديقتي العزيزة . والحقيقة أنه أغمي عليَّ خلال الجنازة . ولذلك فأنا لم أنتبه إلى الشاب على الاطلاق .

سأله المدعي العام أن يشرح للمحكمة ما اذا كان رآني أبكي . ولما أجاب بيريز نفياً أضاف المدعي العام منتصراً :

ـ أحب أن يدون المحلفون هذا الجواب .

فنهض محاميَّ على الفور ، وسأل بيريز بنبرة تراءى لي أنها عدائية لا ضرورة لها :

ـ ألا فكر قليلاً ، يا سيدي ! هل تقسم أنك لم تره يذرف الدمع ؟

فأجاب بيريز :

ـ كلا .

وتهانف الجمهور عند هذا الجواب ، وشمّر محامي أحد كمي ثوبه ، وقال في حدة :

ـ هذه هي صورة الدعوى . ليس ثمة أية محاولة لتزويق الوقائع الحقيقية .

وتجاهل المدعي العام هذه الملحوظة . كان يقرع بقلمه على غلاف اضبارته ،

تلوح على وجهه آيات عدم المبالاة .

رفعت الجلسة مدة خمس دقائق للاستراحة ، فأخبرني محامي أن القضية تسير على خير ما يرام . ثم نودي على سيليست . كان قد أعلن عن اسمه كشاهد دفاع . والدفاع هو أنا .

كان سيليست يرميني بنظرة بين فينة وأخرى . وظلّ يعصر قبعته المصنوعة من القش بين يديه أثناء ادلائه بإفادته . كان يرتدي أفخر ثيابه . تلك الثياب التي يرتديها حين يذهب معي بعض أيام الآحاد إلى سباق الخيل . وكان يبدو أنه لم يستطع أن يضع ياقته ، فقد لاحظت أن ذروة قميصه مُحكمة بزر نحاسي . وسئل عما إذا كنت أحد زبائنه ، فأجاب :

- أجل ، وهو صديق أيضاً .

وسئل أن يبدي رأيه فيَّ ، فأجاب أنني «فتى طيب» . وطلب إليه أن يوضح مغزى ذلك فأجاب أن الجميع يعرفون معنى ذلك .

- هل كان رجلاً منطوياً على نفسه ؟

فأجاب :

- كلا . لا يمكن أن أسميه كذلك . ولكنه ليس رجلاً أبله ، مثل كثيرين من الناس .

وسأله المدعي العام إن كنت أسدّد حسابي الشهري للمطعم عندما يطلب مني ذلك فضحك سيليست :

- أوه ، لقد كان يدفع الحساب فوراً . ولكن الفواتير كانت تفصيلات بيني وبينه .

ثم سئل أن يبدي رأيه بجريمتي . فوضع يديه على حاجز المنصة وبدا واضحاً أنه أعدَّ خطبة مسبقة .

- في رأيي أنها حادث عرضي ، أو ضربة حظ سيىء إذا شئتم أن تسموها

كذلك . إن حادثة من هذا النوع تفقد المرء وعيه .

وأراد الاستمرار في الحديث ، لكن الرئيس منعه عن ذلك قائلاً :

ـ هذا يكفي . هذا يكفي . شكراً .

وبدا على سيليست أنه صعق . فأوضح أنه لم يكمل حديثه . فطلب إليه أن يتابع الكلام ، وأن يختصر ما أمكن .

وكرّر القول إن ذلك كان عبارة عن «حادث عرضي» .

قال القاضي :

ـ هذا مفهوم . إننا هنا لنحكم على مثل هذه الحوادث طبقاً لنص القوانين . يمكنك أن تنصرف .

استدار سيليست ونظر إليّ . كانت عيناه ندیانتین وشفتاه ترتجفان ، كمن يقول :

ـ حسناً ، لقد بذلت جهدي في سبيلك ، يا صاحبي . أنا خائف ألا يساعدك ذلك . أنا آسف .

لم أقل شيئاً ، أو آت حركة ، ولكنني وددت ، للمرة الأولى في حياتي ، أن أقبّل رجلاً .

طلب إليه الرئيس ثانية أن يغادر المنصة ، فاستدار سيليست إلى مكانه بين الجمهور . ظلّ هنالك خلال الجلسة بطولها ، وقد أسند مرفقيه على ركبتيه ، وقبعته المصنوعة من القش بين يديه ، يتابع كل كلمة بعناية فائقة .

وجاء دورماري . كانت تلبس قبعة ، وكانت لا تبرح تبدو جميلة ، رغم أنني أفضل أن أراها مرسلة الشعر . تطلعت من حيث جلست الى تقاطيع نهديها الناعمة ، وكانت شفتها السفلة ناتئة قليلاً ، الأمر الذي يفتنني على الدوام . وكانت تبدو ثائرة الاعصاب .

كان السؤال الأول : منذ متى تعرفني ؟ فأجابت منذ اليوم الذي كانت

تعمل فيه في مكتبنا . ثم سألها القاضي عن ماهية العلاقة بيننا ، فأجابت إنها كانت صديقتي . وأجابت عن سؤال آخر إنها وعدت أن تتزوجني . سألها المدعي العام فجأة ، وكان يدرس أحد المستندات أمامه ، متى بدأت «علاقاتنا» . فحدّدت له التاريخ . فأعلن المدعي العام عندها ، في نبرة لا مبالية ، أنها تعني على ما يبدو اليوم الذي تلا جنازة أمي . ثم أعقب بعد ذلك في شيء من السخرية أن ذلك كان «موضوعاً دقيقاً» ، وأنه يستطيع البحث في مشاعر سيدة فتية وأحاسيسها ، ولكن واجبه ـ وازداد صوته هنا حدة ـ يرغمه على اطراح الاعتبارات الدقيقة .

سأل ماري بعد هذا الايضاح أن تلخص له ماذا فعلنا في ذلك اليوم عندما «جامعتها» للمرة الأولى . لم تكن ماري تريد أن تتكلم أول الأمر ، غير أن المدعي العام ألحّ عليها ، فقالت له عندئذ إننا التقينا في المسبح ، ومضينا معاً إلى السينما ، ومن بعد إلى غرفتي . فخاطب المحكمة قائلاً إنه ، كنتيجة للمعلومات التي أعطتها ماري أثناء استجوابها لدى قاضي التحقيق ، فقد درس برامج دور السينما في ذلك التاريخ ، وطلب إلى ماري بعد أن استدار صوبها أن تسمي الفيلم الذي ذهبنا لمشاهدته فقالت في صوت جد مخفوض إنه فيلم من تمثيل فرنانديل . ولم تتم حديثها حتى ران الصمت في قاعة المحكمة بحيث تسمع صدى إبرة إن وقعت .

هبَّ المدعي واقفاً وعلى وجهه علائم الجدّ ، وأشار إليَّ ، وقال في نبرة أقسم أن الانفعال سيطر عليها تماماً :

ـ يا سادتي المحلفين ، أريدكم أن تذكروا أن هذا الرجل ، غداة دفن أمه ، كان يزور المسابح ، ويبدأ علاقة مع فتاة ، ويذهب لمشاهدة فيلم هزلي . هذا كل ما أريد أن أقول .

كان ذلك السكون الشامل جاثماً على القاعة عندما جلس . وانفجرت ماري

٧

باكية على غير انتظار . قالت إنه فهم الأمر على عكس ما أرادت ، فالأمر لم يكن على هذا الغرار حقاً ، وقد أرغمها على أن تقول خلاف ما كانت تقصد أن تقول . إنها تعرفني حق المعرفة ، وهي واثقة أنني لم أقم بأي أذى - وما شابه ذلك . واقتادها أحد الحجاب ، بإشارة من الرئيس ، إلى خارج القاعة . وتوبعت الجلسة .

بدا لي أن أحداً لم يكن يصغي إلى ماسون ، الشاهد التالي . قال إني كنت رجلاً محترماً ، «وأكثر من ذلك مهذباً» . كما أن أحداً لم يلق أذناً صاغياً لسالامانو عندما أنبأهم كيف كنت لطيفاً مع كلبه على الدوام ، أو حين أجاب عن سؤال حول أمي وحولي بقوله إنه لم يكن لديَّ ما أقول لأمي وهذا ما يفسر وضعي لها في المأوى . وأضاف قائلاً :

- يجب أن تفهموا ، يجب أن تفهموا .

لكن أحداً لم يكن يبدو أنه يريد أن يفهم . وطلب إليه أن يعود إلى مكانه .

جاء دور ريمون ، وهو آخر شاهد. لوَّح لي بيده بإيماءة صغيرة وقال إني بريء . فوبّخه الرئيس قائلاً :

- أنت هنا للادلاء بإفادتك لا وجهة نظرك في القضية . وينبغي أن تردّ على الأسئلة التي تطرح عليك .

طلب إليه أن يوضح صلته بالضحية . فانتهز ريمون الفرصة ليشرح أنه هو ، لا أنا ، كان هدف الضحية ، لأنه هو، ريمون ، قد ضرب له أخته . وسأله القاضي إن لم يكن لدى الرجل القتيل سبب يدعوه إلى كرهي أنا الآخر. فأخبره ريمون أن وجودي على الشاطىء في ذلك النهار كان محض مصادفة ليس غير .

سأل المدعي العام :

- كيف تفسر إذن أن الرسالة التي قادت إلى هذه المأساة كانت من عمل

السجين ؟

أجاب ريمون أن هذا أيضاً هو من قبيل المصادفة المحضة.

فأعلن المدعي العام أنه يبدو في هذه القضية أن «الحظ» أو «المصادفة المحضة» تلعبان دوراً رئيسياً . وهل كان من قبيل الحظ أني لم أتدخل حين صفع ريمون عشيقته ؟ وهل من قبيل «الحظ» أني شهدت في صالح ريمون في مخفر الشرطة ، وأن تصريحاتي ، في تلك المناسبة ، كانت في صالحه ؟ وفي النهاية سأل ريمون عن وسائل عيشه .

عندما أجاب ريمون إنه رجل ماخور ، التفت المدعي العام الى المحلّفين وقال إنه واضح أن الشاهد يعيش على حساب أرباح النساء اللاأخلاقيات ، وأنني أنا صديقه وشريكه . والواقع أن الجريمة برمتها قضية مأساة أخلاقية ، ويزيدها خطورة شخصية السجين ، شيطان متوحش لا خلاق له .

أراد ريمون أن يحتجَّ ، كما أحتجَّ محامي أيضاً . فقيل لهما إن المدعي العام يجب أن يكمل حديثه .

قال المدعي العام :

ـ أنا على وشك أن أفعل ذلك .

واستدار إلى ريمون :

ـ هل كان الموقوف صديقك ؟

ـ أكيد . كنا صديقين حميمين ، كما يقولون .

وسألني المدعي العام السؤال عينه . فحدَّقت في ريمون بقسوة ، فلم يبعد عينيه عني . قلت :

ـ نعم .

فاستدار المدعي العام إلى المحلّفين :

ـ لم يكتف الرجل الماثل أمامكم في قفص الاتهام بالانغماس في أحط ألوان

الدعارة غداة دفن أمه ، ولكنه قتل رجلاً بكل هدوء أعصاب لتصفية قضية أخلاقية من أبشع ما يمكن أن يوصف . هذا هو ، يا سادتي المحلفين ، مثال هذا الموقوف .

وما أن جلس حتى رفع محامي ذراعيه عالياً ، نافد الصبر ، فشمَّر عن ساعديه المنتهيين بكمّي قميص منشّى ، وسأل :

ـ هل يحاكم موكلي بتهمة دفن أمه أو بتهمة قتل رجل ؟

ورنت أصوات ضحك في القاعة .

هبَّ المدعي العام على قدميه ، وتسربل بثوبه ، وقال إنه مشدوه من سذاجة صديقه في الاخفاق في رؤية أن ثمة علاقة أساسية بين حديَّ هذه القضية . إنهما يرتبطان نفسانياً ، إن أجيز له أن يقول ذلك . وختم حديثه بقوله ، وهو يتحدث في عنف :

ـ وباختصار ، فأنا أتهم هذا الموقوف أنهَ تصرف يوم دفن أمه بأسلوب يدل على أنه مجرم في قلبه .

وبدا أن هذه الكلمات خلفت أثراً كبيراً على المحلفين والحضور . هز محامي كتفيه ومسح العرق عن جبهته . مما لا ريبة فيه أنه كان مزعوجاً . وشعرت أن الأمور لا تسير في صالحي على الاطلاق .

رفعت الجلسة بعد ذلك . ونقلت من قاعة المحاكمة إلى سيارة السجن ، وأنا أشعر للحظات قصار برائحة الأمسية الصيفية المألوفة في الخارج . ولما جلست في عتمة زنزانتي استعدت ، في ذهني المتعب ، جميع الأصوات المميزة للمدينة التي كنت أحب ، وساعة معينة من النهار كانت تلذني بصورة خاصة . صراخ باعة الصحف من الأولاد في الهواء المسترخي ، وآخر نداءات العصافير في الحدائق العامة ، وصراخ بائعي الساندويش ، وقعقعة عربات الترام في منعطفات المدينة العليا ، وخشخشة السماء الخفيفة فيما العتمة تسّاقط على المرفأ ـ هذه

الأصوات جميعاً جعلت عودتي إلى السجن أشبه برحلة رجل أعمى على طريق حفظ كل خطوة فيها عن ظهر قلبه .

بلى ، تلك كانت ساعة العشية عندما ـ لكم كان يخيّل إليّ أنها غارقة في البعد ! ـ كنت أشعر دائماً أنني مغتبط بالحياة ثم إن ما كان ينتظرني هو ليل مريح ، ونوم لا أحلام فيه . هذه هي الساعة ذاتها ، لكنها على شيء من الاختلاف . كنت أعود إلى زنزانة ، وكان ما ينتظرني هو ليل تنتابه هواجس النهار المقبل . وهكذا تعلمت أن الدروب المألوفة المرسومة في عشيات الصيف يمكن أن تقود إلى السجن مثلما تقود إلى نوم بريء لا همّ فيه .

٤

يثير الاهتمام دائماً ، حتى في زنزانة سجين ، أن يسمع المرء من يتحدث عنه . وطبيعي أنهم تحدثوا عني كثيراً ، وخاصة في مرافعة محاميّ والمدعي العام . تحدثوا عني شخصياً أكثر مما تحدثوا عن جريمتي .

لم يكن ثمة اختلاف كبير بين المرافعتين . كان المحامي يرفع ذراعيه إلى السماء أثناء دفاعه ويعلن أني مذنب ، ولكنه يلتمس لي الأعذار . وكان المدعي العام يأتي الحركات ذاتها ويوافق على أنـي مذنـب ، ولكنـه يرفض قبـول الأعذار .

غير أن هنالك شيئاً كان يزعجني في هذه المحاكمة . ورغم ما كان يشغلني من هذه الأقوال التي يصرفونها ، فقد كنت أحاول أن أقول كلمة شخصياً . وكان محاميّ يطلب إليّ ألا أفعل ، ويقول :

ـ أنت لن تصلح حال قضيتك بحديثك .

يبدو أن هذه القضية كانت تستبعدني من إجراءاتها . فما كان ينبغي أن أقول شيئاً . وكان مصيري يتقرّر من دون رأيي .

وراح يخطر لي بين فينة وأخرى أن أقاطع الجميع وأقول :

ـ لكن ، لعنة الله على كل شيء . من هو المتهم في هذه المحكمة ؟ أريد أن أعرف ذلك ! إنه لمهم جداً أن يكون المرء متهماً . وإن لديَّ شيئاً على جانب

كبير من الأهمية أريد أن أقوله لكم .

ولكنني ، بعد أن أفكر قليلاً ، أجد أنه ليس لديَّ ما أقول . ويجب أن أعترف ، على أية حال ، أن إصغاء المرء إلى ما يقول الناس عنه يفقد أهميته سريعاً . فمرافعة المدعي العام بدأت تضجرني بشكل خاص قبل أن يصل إلى منتصفها . والشيء الوحيد الذي استرعى التفاتي هو مقاطع عرضية ، وحركاته ، وبعض كلمات معقدة ـ ولكنها مفصولة عن المجموع .

وتبينت أن ما هدف إليه هو إظهار أن جريمتي كانت عن سابق عمد . وأذكر أنه قال مرة :

ـ أستطيع أن أثبت ذلك ، يا أيها السادة المحلفين ، على أكمل وجه . فلديكم أولاً وقائع الجريمة ، هذه الوقائع الواضحة وضوح النهار . ومن بعد لديكم ما أسميه الجانب المظلم من هذه القضية ، الأعمال المظلمة لذهنية مجرمة .

شرع يلخص الوقائع ، منذ وفاة والدتي حتى آخر التفاصيل . وأكد على قساوة قلبي ، وعلى جهلي بعمر أمي ، وعلى ذهابي الى المسبح حيث التقيت ماري ، وعلى ذهابنا إلى السينما لمشاهدة فيلم من تمثيل فرنانديل ، ثم عودتي برفقة ماري إلى غرفتي . لم أستطع فهم كلماته أول الأمر ، فيما هو يردّد «عشيقة الموقوف» . وقد كانت بالنسبة إليّ «ماري» فقط . ثم وصل إلى موضوع ريمون . فوجدت أن طريقته في النظر إلى الأحداث لم يكن ينقصها الوضوح . إن ما كان يقوله معقول . لقد كتبت الرسالة بالاتفاق مع ريمون لأجذب عشيقته إلى غرفته وأسلمها الى المعاملة السيئة من قبل رجل «سيىء السمعة حقاً» . وهنالك على الشاطىء أثرت شجاراً مع خصوم ريمون ، وجرح ريمون في هذا الخصام . فطلبت اليه أن يعطيني مسدسه ، ورجعت بنفسي وفي نيتي أن أستعمله . ثم أطلقت النار على العربي . وانتظرت بعد الطلقة الأولى . ثم

أطلقت أربع رصاصات أخرى «لأتأكد من أنني أنجزت العملية جيداً» ، وكان إطلاقي النار على مهلة ، وبشكل واع ، على ضحيتي . قال :

ـ هذه هي قضيتي . لقد وصفت لكم سلسلة الأحداث التي قادت هذا الرجل إلى ارتكاب جرم القتل ، وهو عالم بما تقترف يداه . وأنا ألحّ على هذه الناحية . نحن لا نعالج هنا قضية قتل عادي في فورة فجائية يمكن أن نمنحها أسباباً مخففة . أرجو منكم أن تلاحظوا ، أيها السادة ، أن هذا الموقوف رجل مثقف . ولا ريب أنكم لاحظتم كيف كان يردّ على أسئلتي . إنه ذكي ، وهو يعرف قيمة الكلمات . وأكرّر أنه يستحيل أن نقول إنه ، وهو يرتكب فعلته ، لم يكن عارفاً ماذا يفعل .

واسترعى انتباهي أنه يصرُّ على «ذكائي» . وأدهشني كيف يمكن لمزايا رجل عادي أن تغدو أعباء ساحقة ضد مذنب . وفيما أنا أفكر في ذلك غاب عني ما كان يقول بعد ذلك حتى سمعته يوضح في كلمات ساخطة :

ـ هل تراه عبَّر عن شيء من الأسف عن جريمته البشعة ؟ إنه لم يقل كلمة واحدة ، أيها السادة . ولا كلمة واحدة خلال هذا التحقيق كله .

والتفت إلى قفص الاتهام ، ودلَّ عليَّ ، وتابع حديثه . ولم أستطع أن أفهم لماذا يضرب على هذا الوتر المنفرد كثيراً . لم أكن أنكر طبعاً أنه كان على حق . فأنا لا أشعر بشيء من الأسف على ما فعلت .

كان بودّي أن يتاح لي أن أشرح له ، في أسلوب ودي ، أسلوب حبي ، أنني لم أكن أستطيع أن آسف على أي شيء كان في حياتي . كنت على الدوام مأخوذاً بما هو آنيٌّ ، أو بما يأتي به المستقبل ، فلا أفكر في الماضي . وطبيعي أني لم أكن أستطيع ، في هذا الوضع الذي زجوا بي فيه ، أن أتحدث إلى أي كان على هذا الغرار . لم يكن لي الحقّ أن أبدو محباً ، ولا أن تكون لي أية إرادة طيبة . فحاولت أن أصغي إلى ما يقال بعدُ ، فيما المدعي العام يبحث الآن فيما

بسميه «نفسي» .

قال إنه درسها عن كثب ـ فوجد أنهـا «فارغـة تماماً ، يا أيهـا السـادة المحلفين» . وقال إنه لم تكن لي روح في الحقيقـة ، ولـم يكن لديّ ما هو إنساني ، وإن أي مبدأ من المبادىء التي يملكهـا البشر كان ممتنعاً عليّ .

وأضاف يقول :

ـ لا شك أننا لن نوبخه من أجل ذلك . فنحن لا نستطيع أن نلوم رجلاً لفقدانه ما يفتقر إليه . ولـكن القضية بالنسبـة إلى محكمـة جزائية هي أن الفضيلة السلبية للتسامح يجب أن تخلي مكانها لفضيلة أصعب ، أعني العدالة ، وخاصة عندما يكون هذا النقص مثل النقص الذي نكتشفه في مثـل هذا الرجل الماثل أمامكم ، وهو تعريض المجتمع للخطر .

وانتهى إلى بحث موضوع تصرفاتي حيال أمي ، فكرر ما سبق أن قال خلال الاستجواب . ولكنه أسهب كثيراً حول موضوع جريمتي ، أسهب حتى فقدت معاني كلماته ، ولم أعد أشعر سوى حرارة القاعة المتفاقمة .

وجاءت لحظة توقف المدعي العام فيها ، وصمت فترة ، ثم استرسـل في صوت خفيض مرتعش :

ـ هذه المحكمة ، أيها السادة ، ستنظر في الغداة موضوع جريمة من أبشع الجرائم ، وهي جريمة ابن قتل والده .

لم تكن هذه الجريمة مما يمكن تصوّره بالنسبة إليه . وكان يجرؤ على أن يؤمل أن تأخذ العدالة مجراها حقاً . كما كان يجرؤ على القول إن الفظاعة التـي أوحتها تلك الجريمة تنهزم أمام الفظاعة التي يشعر بها حيال قسوة فؤادي .

ـ ان الرجل الذي يقتل أمه معنوياً لا يختلف عن الرجل الذي يرفع يداً قاتلة على أبيه الذي وهب له الحياة . الجريمة الأولى تقود من دون ريب إلى الثانية . وأول هذين المجرمين ، هذا الرجل الذي يقف في قفص الاتهام ، قد

وضع سابقةً ، إذا سمحتم لي أن أقول ذلك ، ورخّص بارتكاب الجريمة الثانية . بلى ، أيها السادة ، إنني واثق (ورفع صوته هنا) أنكم لن تجدوا أنني أبالغ في هذه القضية ضد هذا الرجل عندما أقول إنه مجرم أيضاً بجريمة القتل التي ستنظر غداً في هذه المحكمة . وإنني أطلب منكم أن تنزلوا به القصاص العادل .

وتوقف المدعي العام مرة أخرى ليمسح العرق عن وجهه . ثم شرح أن واجبه مؤلم ، ولكنه سيقوم به في حزم .

ـ أكرر أن هذا الرجل لا محلّ له في مجتمع يحتقر مبادئه الأساسية الاحتقار كلّه . ولما كان قاسي الفؤاد فهو لا يستأهل الرحمة . أسألكم أن تحكموا عليه بأقصى عقاب استنّه القانون ، وأنا أطلب ذلك وقلبي مطمئن . خلال ممارستي المهنية الطويلة ، هذه الممارسة التي اضطررت خلالها إلى طلب إنزال أقصى العقوبة بالمتهمين ، لم أشعر قط كما أشعر اليوم بأن هذا الواجب الشاق مكافأ ومتوازن ومضاء بوعي أمر قوي مقدس ، وبفظاعة أحسها إزاء وجه إنسان لا أقرأ على صفحته أية بارقة من شعور بشري .

عندما جلس المدعي العام أطبق صمت قاتل . كنت منهكاً بالحرارة والدهشة مما كنت أسمع . وسعل الرئيس سعلة قصيرة ، وسألني في صوت خفيض إن كان لديَّ ما أريد أن أقول . نهضت ، وشعرت أني أريد أن أقول شيئاً ، فقلت أول شيء خطر في بالي : أني لم أكن أنوي قتل العربي . فأجاب الرئيس أن هذا الايضاح سيؤخذ بعين الاعتبار من قبل المحكمة . وأنه يجب أن يعرف في تلك الأثناء ، وقبل أن يبدأ وكيلي إلقاء دفوعه ، ما هي الدوافع التي جعلتني ارتكب جريمتي . فهو لم يفهم تماماً أسس دفاعي .

حاولت أن أشرح كيف أن ذلك كان من الشمس ، ولكنني تحدثت في عجلة ، وانهالت كلماتي وراء بعضها بعضاً فاختلطت معانيها . وأحسست أنها

كانت تبعث على السخرية ، فقد سمعت الجمهور يضحك .

هزّ محامي كتفيه . طُلِبَ إليه أن يلقي دفاعه بدوره . ولكنه أشار إلى أن الوقت تأخر ، وطلب إمهاله إلى ما بعد ظهيرة اليوم التالي . فوافق الرئيس على ذلك .

عندما وصلت اليوم التالي كانت المروحتان الكهربائيتان لا تبرحان تحركان هواء القاعة الثقيل ، والقضاة يروّحون وجوههم بمراوحهم الصغيرة بإيقاع واحد منتظم . وخيّل إليَّ أن مرافعة الدفاع لن تنتهي . أصغيت اليه أوّل الأمر ، فسمعته يقول : «صحيح أني قتلت رجلاً» . وتابع الحديث على هذا الغرار ، فقال : «أنا» كلما تحدث عني . وبدا الأمر غريباً بحيث انحنيت على أحد الشرطيين عن يميني وسألته أن يوضح الأمر لي . فأمرني أن أخرس . ثم همس بعد لحظة :

ـ جميع المحامين يفعلون ذلك .

أما أنا ففكّرت أن في ذلك أيضاً أبعاداً في هذه القضية وإحالتي الى صفر ، وحلول المحامي محلي على شكل ما . أزعجني ذلك . فقد شعرت أن الكلمات تنزلق من قاعة المحاكمة وإجراءاتها المملة .

أدهشني محاميَّ ، على أية حال ، بحيث بدا لي مضحكاً . أسرع في مرافعته ، ثم بدأ ، هو نفسه ، يتحدث عن «روحي» . ولكنه بدا لي أقلّ موهبة من المدعي العام بما لا يقاس . قال :

ـ أنا الآخر درست روح هذا الرجل عن كثب . ولكنني ، خلافاً لرأي صديقي المدعي العام ، وجدت شيئاً فيها . وأستطيع أن أقول إنني قرأت ما في ذهن موكلي كما أقرأ في كتاب مفتوح .

إن ما قرأه هناك هو أني كنت رجلاً رائعاً ، شريفاً ، وعاملاً منتظماً يبذل قصاراه في خدمة مخدومه ، وأني كنت معروفاً من قبل الجميع ، وأتعاطف مع

الآخرين ومشاكلهم . وكنت في نظره ولداً مطيعاً ، ساعد أمه على قدر استطاعته . وقد انتهيت بعد بحث مطوّل إلى قرارهو أن ادخال السيدة العجوز إلى المأوى سيؤمن لها الراحة التي لا يمكن أن تؤمنها وسائلي المادية . وأضاف :

ـ يدهشني ، أيها السادة ، أن تكون أثيرت مثل تلك الضجة الصاخبة من قبل صديقي المثقف حول ذلك المأوى . فإن وجب اعطاء برهان على نفع هذه المؤسسات ، فيجب أن نذكر فقط أن هذه المؤسسات أنشأتها الدولة وجعلت تمدّها بالمال .

لحظت أنه لم يشر إلى الدفن ، وأحسست أن هذا كان نقصاً أساسياً في مرافعته . ولكنه بسبب من هذه العبارات الطويلة وتلك النهارات جميعها والساعات التي نوقش فيها موضوع «روحي» وما تبع ذلك ، وجدت أن فكري أصيب بالاغماء . كل شيء ينحلّ في ضباب مائي رمادي اللون .

في ذاكرتي شيء واحد فقط . عند انتهاء المرافعات ، ووكيلي يتابع حديثه ، سمعت بوق بائع مثلجات من الشارع . صوت قصير حاد يبتر سيل تدفق الكلمات . وتلاحقت في ذهني اندفاعة من الذكريات ـ ذكريات حياة لا تخصني ولكنها زودتني بمسرات متواضعة راسخة : روائح صيف دافئة ، وشوارعي المحبوبة ، وسماء المساء ، وثياب ماري وضحكتها . إن عبث ما يجري الآن هنا يلوح وكأنه يأخذ بخناقي ، ورأيتني أستعجل فكرة واحدة : أن انتهي ، وأعود إلى زنزانتي ، وأنام ... أنام .

وسمعت ، فيما يشبه الضباب ، محامي ينهي مرافعته :

ـ أيها السادة القضاة ، أكيد أنكم لن ترسلوا إلى الموت شاباً شريفاً عاملاً لأنه فقد سيطرته على نفسه في لحظة شرود ؟ أفلم يعاقب بما فيه الكفاية بهذا الندم الأبدي الذي يطوّق عنقه ؟ إنني أنتظر قراركم على ثقة ، القرار الوحيد المعقول ـ القتل مع الأسباب المخففة التقديرية .

نهضت المحكمة وجلس المحامي وقد أنهكه الحديث . وجاء بعض زملائه وصافحوه . وسمعت أحدهم يخاطبه بقوله :

ـ لقد تلوت مرافعة رائعة ، يا صاحِ .

وطلب أحد المحامين شهادتي قائلاً :

ـ رائعة ، أليس كذلك ؟

فأومأت بالايجاب . لكنني لم أكن صادقاً . كنت متعباً جداً كي أحكم ما اذا كانت «رائعة» أم لا .

كان النهار يتلاشى ، والحِرارة تضعف . وعرفت أن برودة المساء انتشرت من ضجيج بعض أصوات مُبهمة دفَّت إلى سمعي من الشارع . كنا جميعاً ننتظر جلوساً . وما كنا ننتظره لم يكن يعني أحداً سواي . أدرت بصري في قاعة المحكمة . كان كل شيء فيها مثلما رأيته أول يوم . التقيت عيني الصحافي ذي البزة الرمادية والمرأة الغريبة . فذكرني ذلك أني لم أحاول النظر في عيني ماري مرة واحدة خلال فترة المحاكمة بأسرها . لم يكن ذلك لأنني نسيتها ، إنما لأنني شُغلت عنها بأمور أخرى . وهذا أنا أراها الآن جالسة بين سيليست وريمون .

لوَّحت لي بيدها بحركة صغيرة ، كما لو أنها تقول : «وأخيراً !» . كانت تبتسم ، وأستطيع أن أقول إنها كانت قلقة . ولكنني أحسست كما لو أن قلبي تحجَّر ، فلم أستطع أن أرد على ابتسامتها .

رجع المحلفون إلى مقاعدهم . وقرأ أحدهم على القضاة ، في سرعة كبيرة ، سلسلة من الأسئلة . التقطت منها هنا وهنالك : «مذنب بجريمة قتل عمد ... سبق تصوّر ... ظروف مخففة» . وخرج القضاة ، وأُخذت إلى الغرفة الصغيرة التي سبق أن انتظرت فيها . وجاء محاميَّ لرؤيتي . كان يتكلم بسرعة ويحدثني في ثقة ولطف لم أعهدهما منه قبلاً . وأكد لي أن الأمور ستسير على خير ما يرام

وسينتهي الموضوع بعدة سنوات من السجن أو الابعاد . وسألته عما إذا كان هنالك مجال لنقض الحكم . فأجاب بالنفي . كانت خطته ألا يستخرج نتائج ختامية كيلا يزعج المحكمة . ولا يمكن الطعن في حكم إلا بناء على أسباب قانونية . فهمت وجهة نظره ، فصمتُّ . قنعت بما قال كيلا يكون ثمة لا نهاية للمحاكمات .

قال المحامي :

ـ وعلى أية حال ففي مقدورك استئناف الحكم بشكل عادي . ولكنني واثق أن القرار سيكون معقولاً .

انتظرنا فترة من الزمن ، حوالي ثلاثة أرباع الساعة ، كما أعتقد . ثم دق الجرس . فتركني محامي ، قائلاً :

ـ سيقرأ رئيس المحكمة الأجوبة . وسيستدعونك بعد ذلك لسماع نص الحكم .

اصطفقت بعض الأبواب . وسمعت بعض الأشخاص يتراكضون على سلّم ، ولكنني لم أعرف إن كان قريباً أم بعيداً . ثم سمعت صوتاً يدندن في قاعة المحكمة .

عندما دق الجرس من جديد رجعت إلى قفص الاتهام ، وخيّم صمت القاعة حواليَّ ، وجاء مع الصمت إحساس غريب عندما شاهدت ، للمرة الأولى ، ذلك الصحافي الشاب يحوّل بصره عني . ولم أنظر في اتجاه ماري . لم يتح لي الوقت لذلك لأن الرئيس أعلن بعد كلمات معقدة أنه «باسم الشعب الفرنسي» سيقطع رأسي في ساحة عامة .

خيّل إليَّ عندئذ أني أستطيع أن أترجم تلك النظرة التي ارتسمت على وجوه الحضور . إنها نظرة شفقة محترمة . وقد عاملني رجال الشرطة في مزيد من اللطف . ووضع المحامي يده على معصمي . ولم أعد أفكّر في شيء على

الاطلاق . وسمعت صوت الرئيس يسألني إذا كان لديَّ ما أضيفه . فكرت قليلاً ، وأجبت :

ـ كلا .

واقتادني رجال الشرطة .

٥

رفضت للمرة الثالثة رؤية كاهن السجن . فليس لديَّ ما أقول له ، وليست لديَّ رغبة في الكلام ـ وسوف أراه عن قريب ، على أية حال . الأمر الوحيد الذي يشغلني الآن هو قضية الافلات من تلك الآلة ، وأن أعرف ما اذا كان ثمة مخرج من هذه الورطة .

نقلوني إلى زنزانة أخرى . في هذه الزنزَانة ، عندما أستلقي على ظهري ، أستطيع رؤية السماء ، ولا أرى سواها . كنت أقضي أوقاتي أراقب التبدل البطيء في ألوان السماء فيما النهار ينقلب إلى ليل . وكنت أضع يديَّ خلف رأسي ، وأحدّق ، وأنتظر .

تملكتني فكرة ذلك المهرب . فرحت أتساءل ما إذا كان ثمة أمثلة لمحكومين بالإعدام استطاعوا الإفلات من آلة العدالة التي لا تخطىء في آخر لحظة ، فحطموا صفوف الشرطة ، واختفوا قبل أن تهبط آلة التنفيذ على رقابهم . كنت ألوم نفسي بين حين وحين أني لم أعر قصص الاعدام الاهتمام الكافي . يجب على المرء دائماً أن يهتم بمثل هذه المسائل . فهو لا يعلم ما يمكن أن يحدث . صحيح أني قرأت كسائر الناس أخبار الاعدامات في الصحف . ولا شك أن ثمة مؤلفات خاصة تبحث في هذه الموضوعات ، ولكنني لم أبالِ مرة بقراءتها . لو فعلت ذلك لوجدت قصصاً تبحث عن الفرار . أكيد أنني كنت قرأت فيها

أن العجلات توقفت في إحدى هذه الحالات ، وأن الحظ لعب ، مرة واحدة على الأقل ، دوره فيها . مرة واحدة فقط ! وأحسب أن بارقة واحدة من هذه الأمور كان يمكن أن ترضيني . وكانت عواطفي تقوم بالباقي . كانت الصحف تتحدث غالباً عن «دين مستحق للمجتمع» - دين ينبغي على المذنب ، بالنسبة إليهم ، أن يسدده كاملاً . لكن مثل الحديث لا يمكن أن يثير المخيّلة . كلا ، ما كان يمكن أن يفيدني هو إمكانية فراري وإحباط مسعاهم في إراقة الدماء ، إمكانية هروب مجنون إلى الحرية يمكن أن يهب لي لحظة من أمل ، كآخر رمية حظ يقوم المقامر بها . طبيعي أن ذلك «الأمل» كله يمكن أن ينتهي في زاوية شارع ، أو برصاصة في ظهري . لكننا اذا اعتبرنا كل شيء ، فقد كان هذا البذخ ممنوعاً عليَّ . وقعت في المصيدة بشكل لا يمكن الإفلات منه .

لم أكن أستطيع ، رغم جهودي ، أن أقبل هذا اليقين الوحشي . ذلك أنه كان في نهاية المطاف تنافر بين الحكم الذي بُني عليه وتسلسل الحوادث الراسخ بدءاً من اللحظة التي أعطي هذا الحكم فيها . ان كون الحكم قد تلي في الساعة الثامنة بعد الظهر بدلاً من الساعة الخامسة ، وكون أنه كان يمكن أن يكون حكماً مختلفاً عن هذا ، وكونه اتخذ من قبل رجال يغيرون ملابسهم الداخلية ، وكونه عزي إلى هوية غريبة مثل «الشعب الفرنسي» - ولم لَمْ يُعْزَ إلى الشعب الصيني أو الألماني مثلاً ؟ - هذه الوقائع كلها بدت وكأنها تجرّد قرار المحكمة من وقاره وخطورته . ومع ذلك كنت مضطراً ، منذ النطق به ، إلى الاعتراف بأن تأثيره صار مقنعاً ، وملموساً مثلاً مثل هذا الجدار الذي أضطجع عنده وأسند ظهري إليه .

تذكرت ، عندما مرَّت هذه الأفكار في رأسي ، قصة أمي التي اعتادت أن ترويها لي عن أبي . لم أكن قد عرفته قط . لربما كانت الأشياء التي عرفتها عنه فعلاً هي تلك التي روتها أمي . إحدى هذه الأشياء أنه ذهب مرة لحضور

٨

تنفيذ حكم بالإعدام . وكان مجرد التفكير في تلك العملية يجعله يقيء . ولكنه حضرها ، وما أن رجع إلى البيت حتى مرض مرضاً شديداً . وجدت تصرف والدي في تلك الفترة يثير الاشمئزاز ، أما الآن فأنا أدرك ذلك . إنه أمر طبيعي إلى حد بعيد . كيف لم يسبق لي أن رأيت أنه ليس ثمة ما هو أهم من تنفيذ حكم بالإعدام ، وقد كان ، من وجهة نظري الخاصة ، الشيء الوحيد الذي يمكن أن يثير انتباه أي رجل كان ؟ وقررت أنه إذا قُدِّر لي أن أخرج من هذا السجن فسوف أحضر كل تنفيذ حكم بالإعدام يتاح لي أن أدري به . لا ريبة أنني كنت مخطئاً في التفكير بهذه الامكانية ، لأنني عندما أتصور نفسي وقد استرددت حريتي ، واقفاً خلف صف مضاعف من رجال الشرطة ، فإن مجرّد التفكير في كوني المشاهِد الذي يأتي لمجرد التمتع بالرؤية ، والعودة إلى البيت للإقياء بعد ذلك ، يغمر فكري ببهجة وحشية سخيفة . كان من الحماقة أن أسمح لمخيلتي بالاستسلام لهذه الأمور. فأنا أحسُّ في اللحظة التالية بقشعريرة تمتلكني ، فأضطر إلى الانكماش تحت غطائي . وكانت أسناني تصطك فلا أعرف كيف أمنعها عن ذلك .

ومع هذا فإن المرء لا يستطيع أن يكون معقولاً دائماً . كانت فكرة سخيفة أخرى تجعلني أرسم قوانين جديدة ، وأعدل العقوبات . وكان تفكيري ينحو الى أن ما نحن في حاجة إليه هو اعطاء المحكوم عليه فرصة ، ولو كانت تافهة ، ولنقل واحدة من ألف . كان يمكن ايجاد دواء ، أو خليط من الادوية ، يمكن أن يقتل المريض (كنت أفكر في المحكوم عليه باعتباره مريضاً) تسعمئة وتسعين مرة من ألف . وكان هو سيدرك ذلك ، ويدرك أنه الشرط الرئيسي . ذلك أني كنت ألاحظ ، في هدوء ، أنني بعد تفكير طويل أصل الى نتيجة تقول إن ما كان معيباً في قضية المقصلة هو أن المحكوم لم يكن يجد فرصة على الاطلاق ، ولا فرصة واحدة . وكانت تلك نتيجة محتومة . فإذا لم تقم السكين بعملها

لسبب من الأسباب فهم يعيدون التجربة من جديد . وهكذا ينجم عن ذلك ـ ويتم ذلك ضد إرادة الانسان الفطرية من دون ريب ـ أن المحكوم عليه يتمنى أن تسير الآلة سيراً حسناً ! أقول إن هذا هو الجانب الشاذ في العملية . ووجهة نظري صحيحة حقاً . ومن جهة أخرى ، فقد كنت مضطراً إلى الاعتراف بأن سر التنظيم الجيد يكمن هنا . وبالاجمال : فان الشخص المحكوم عليه يضطر لمدّ يد المعونة معنوياً ، فقد كان من مصلحته أن يتم كل شيء دون خطأ على الاطلاق .

وكان ثمة شيء آخر ينبغي عليَّ حتى الآن أن أدركه ، ألا وهو أن أفكاري عن ذلك الموضوع كانت خاطئة . كنت أتصور دائماً ، لسبب ما ، أن المحكوم عليه يجب أن يصعد سلماً ويرتقي صقالة للوصول إلى المقصلة . وأحسب أن هذا كان بسبب من ثورة عام ١٧٨٩ ، أعني ما علّمونيه في المدرسة ، والصور التي تفرّجتُ عليها . ثم تذكرت ذات صباح صورة نشرت في الصحف تمثل عملية إعدام مجرم مشهور . كانت الآلة موضوعة على الأرض ، على أبسط الأشكال ، ودون تعقيدات . وكانت أضيق جداً مما كنت أظنّ . وصعقني أن تلك الصورة الغريبة هربت من ذاكرتي حتى الآن . كما صعقني في ذلك الوقت منظر المقصلة النظيف . جوانبها ونهاياتها اللمّاعة تذكر المرء دائماً بأدوات المخابر النظيفة . فيتصور المرء دائماً أفكاراً مبالغاً فيها عن أشياء لا يعرفها . ويجب أن أعترف الآن أنها بدت لي بسيطة جداً . فالآلة على مستوى الرجل تماماً ، وهو يخطو صوبها كمن يخطو صوب رجل يعرفه . وكان ذلك مزعجاً حقاً . فإن صعود صقالة ، وترك العالم كله تحت إذا أجيز أن أقول ذلك ، يعطي مخيلة الإنسان شيئاً تتمسك به . أما الآلة هنا فكانت تسحق كل شيء . إنها تقتلك على الفور ، في شيء من الخجل وكثير من الدقة .

وكان ثمة أمران آخران أفكر فيهما على الدوام : الفجر ، والاستئناف . بذلت

جهدي ألا أفكر في هذه الأمور. فاضطجعت ونظرت إلى السماء، وأرغمت نفسي على دراستها. وحين بدأ الجوّ يخضرُّ عرفت أن الليل في طريقه إليّ. كنت أبذل جهداً إضافياً لأحرف مجرى أفكاري بالاصغاء إلى ضربات قلبي. لم أستطع أن أتصور أن هذا الخفقان الضعيف الذي كان يرافقني منذ مدة طويلة سيتوقف. لم تكن مخيلتي بعيدة المدى على الاطلاق في يوم من الأيام. ومع ذلك حاولت أن أتصور لحظة يكف فيها خفقان قلبي عن ترديد صداه في رأسي. لكن عبثاً. كان الفجر والاستئناف لا يبرحان أمامي. وانتهى بي الأمر أن أؤمن أن من السخف أن ترغم أفكار المرء على الخروج عن سيرها الطبيعي.

انهم يجيئون في طلب المحكوم عليه عند الفجر دائماً. كنت أعرف هذا تماماً. وهكذا رحت أقضي لياليّ في انتظار ذلك الفجر. لم أكن أحب قط أن أؤخذ على حين غفلة. حين يقع شيء لي، فأنا أريد أن أكون مستعداً لاستقباله. ولذلك اعتدت أن أنام في النهار وأراقب الليل بطوله منتظراً أولى خطوط الفجر على قبة السماء السوداء. وكانت أسوأ فترة في الليل هي تلك الساعة الغامضة التي أعرف أنهم يأتون فيها عادة. كنت أنتظر بعد أن ينتصف الليل، مرهفاً سمعي في انتباه كلي. أبداً لم تلتقط أذنيَّ مثل هذا القدر العديد من الأصوات الطفيفة. ومع ذلك أقول إنني كنت محظوظاً في شيء واحد، ألا وهو أنني لم أسمع خلال هذه الفترات كلها صدى خطوات. كانت أمي تقول غالباً إن المرء، مهما بلغ شقاؤه، فثمة شيء يجب أن يقدم الشكر له. وكلما أطلّ صباح جديد، واستضاءت السماء وراح النور يغمر زنزانتي، كنت أقرّها على رأيها. ذلك أنه كان في مقدوري أن أسمع صدى خطوات، فأشعر أن قلبي سينفجر. ورغم أن أقل صدى كان يطير بي الى الباب، فألصق أذني على الخشب البارد الخشن، وأصغي في انتباه أسمع معه صدى أنفاسي المتلاحقة الخشنة مثل

حشرجة الكلب ـ فقد كان ذلك ينتهي سريعاً . ولم ينفجر قلبي ، وكنت أعرف أني ربحت مهلة أربع وعشرين ساعة أخرى .

كنت أقضي النهار بطوله مفكراً في استئنافي . وقد أفدت كثيراً من هذه الفكرة ، فأحسب حساباتي بشكل أحصل منه على أفضل مردود . وهكذا كنت أبدأ دائماً من أسوأ الحلول : أن يردَّ استئنافي . وهذا يعني طبعاً أني سأموت . وكان هذا يبدو أسرع الحلول . وكنت أذكر نفسي قائلاً :

ـ ولكنه بدهيٌّ أن الحياة غير جديرة بأن تعاش . على أية حال .

كنت أرى في الحقيقة أنه لا فرق أن يموت المرء في الثلاثين من عمره أو في السبعين ، لأن رجالاً آخرين ونساء أخريات سيستمرون في الحياة في كلا الحالين ، والعالم لن يتوقف . وسواء مِتُّ الآن أم بعد أربعين عاماً فالموت لا بدَّ منه ، وهو آت من دون ريب . وكان هذا الصنف من التفكير يزعجني ، وفكرة هذه السنوات الطويلة من الحياة ذكرى تبعث على العذاب ! وعلى أية حال فقد كنت أنقذ نفسي من ذلك فأروح أتصوّر شعوري عندما يحين دوري ، ويحصرني الموت في إحدى زواياه . وعندما يتمّ ذلك لا يعود ثمة أهمية لموت الانسان . وبناء على ذلك ـ وعسير ألا نسقط من الاعتبار ماتثيره هذه «البناء على ذلك» ـ ينبغي أن أستعد لمواجهة رفض استئنافي .

في تلك اللحظة ، وفي تلك اللحظة فقط ، كان لي الحق ، إذا صحَّ التعبير ، وكنت أمنح نفسي الإذن بذلك ، أن أباشر الافتراض الثاني ، ألا وهو قبول استئنافي . عندئذ كانت المشكلة هي كيف أهدىء عنف ذلك الاندفاع الفجائي من الفرح المتدفق في جسدي ، والذي يرقرق الدموع في عينيَّ . كان من واجبي أن أهدىء أعصابي وأريح فكري . فاذا أخذنا هذا الاحتمال بعين الاعتبار فينبغي أن أنظم أفكاري كيما أجعل من هذا الاحتمال ، بالنسبة إلى الاحتمال الأول ، أكثر قابلية . وعندما كنت أنجح في ذلك فأنا أربح ساعة من

هدوء البال . وكان ذلك شيئاً جديراً بالاحترام .

في مثل تلك اللحظات كنت أرفض رؤية الكاهن . كنت مستلقياً أفكّر في اقتراب عشية صيفية من جراء ضوء ذهبي ينتشر عبر السماء . كنت قد رفضت طلب الاستئناف ، وأخذت أشعر بدمي يدور في انتظام وبطء ، في ضربات ثابتة . كلا ، أنا لا أريد رؤية الكاهن ... ثم عملت شيئاً لم أعمله منذ طويل زمن . بدأت أفكر في ماري . انها لم تكتب لي من مدة طويلة . وقلت في نفسي لربما تعبت من أن تكون عشيقة رجل محكوم بالاعدام . أو ربما كانت مريضة ، أو أنها ماتت . ان مثل هذه الأمور تحدث من دون ريب . فكيف أعرف ذلك ، ما دام ليس ثمة شيء يربطنا أو يذكر أحدنا بالآخر غير جسدينا البعيدين عن بعضهما الآن ؟ وإذا فرضنا أنها ماتت فإن ذكراها لا تعني عندي شيئاً . فأنا لا أبالي بفتاة ميتة . وبدت لي هذه الفكرة طبيعية جداً ، مثلما صوّر لي أن الناس سينسونني سريعاً بعد موتي . لم أستطع أن أقول إن ذلك كان صعباً عليَّ ، فليس ثمة فكرة يعجز المرء عن التأقلم معها في فترة من الفترات .

كنت أفكر في هذه الأمور عندما دخل الكاهن عليَّ ، من دون أن أنتبه إلى ذلك . لم أستطع منع نفسي عن الارتعاش حين رأيته . وأدرك هو ذلك ، فطلب إليَّ ألا أخاف . قلت له إن زيارته تكون عادة في غير هذا الوقت ، وفي مناسبة غير مستحبة . فأجاب إنها زيارة ودية ، ولا علاقة لها بموضوع الاستئناف الذي لا يعرف عنه شيئاً . ثم جلس على سريري ، وسألني أن أجلس إلى جانبه . رفضت ـ لا لأنني أحقد عليه ، فهو رجل لطيف رقيق .

ظلّ هادئاً فترة من الزمن ، وقد وضع ذراعيه على ركبتيه ، وَثَبَّتَ عينيه على يديه . كانت يداه رقيقتين قويتين ، فذكرتاني بحيوانين صغيرين رشيقين . ثم فركهما في لطف . ظل جالساً هناك فترة طويلة بحيث كدت أنسى وجوده .

رفع رأسه فجأة ، وتطلع في عينيَّ . سأل :

ـ لماذا كنت ترفض زيارتي ؟

فشرحت له أني لم أكن أؤمن بالله .

ـ هل أنت واثق من ذلك ؟

فقلت إني لا أرى مبرراً لإرهاق ذهني في مثل هذا الموضوع . إن كنت أؤمن أو لا أؤمن بالنسبة إليَّ موضوع تافه

استند إلى الجدار وبسط يديه على فخذيه . قال ، كمن لا يحادثني ، إنه غالباً ما كان يلحظ أن بعض الناس يتخيلون أنهم على ثقة مطلقة من أمر من الأمور ، في حين لا يكونون كذلك في الواقع . ولما لم أعطه جواباً نظر إليَّ مرة أخرى ، واستفسر :

ـ ألا توافقني على ذلك ؟

قلت إن هذا ممكن . ولكنني ، رغم أني قد لا أكون واثقاً مما يلفت انتباهي حقاً ، واثق مما لا يلفت انتباهي على الاطلاق . والموضوع الذي يتحدث عنه لا يلفت انتباهي على الإطلاق .

شرد بصره ، وسألني دون أن يبدل جلسته إن لم أكن أقول ذلك بسبب من شعوري باليأس . فأوضحت أني لا أشعر باليأس ، بل بالخوف ـ وذلك أمر طبيعي جداً .

قال في حزم :

في هذه الحال يستطيع الله أن يمدَّ لك يد المعونة .إن جميع الرجال الذين رأيتهم على هذه الحال لجأوا إليه في أوقات محنتهم .

أجبت أن لهم ملء الحرية في ذلك ، إذا كانوا يشعرون بميل إليه . أما أنا فلا أريد ، على أية حال ، أن يساعدني أحد ، ولست أملك وقتاً أبذله على أشياء لا تلفت انتباهي .

حرَّك يديه في ضيق ، ثم جلس ، وسوّى ثنايا ثوبه . وعندما انتهى من ذلك

شرع يتحدث من جديد ، وهو يخاطبني بكلمة «يا صديقي» . قال إنه لا يحادثني على هذا الغرار لأنني حكمت بالإعدام . فإن كل رجل على الأرض ، في رأيه ، محكوم عليه بالموت .

هنا قاطعته مشيراً أن الأمر يختلف ، وأن ذلك ، على أية حال ، لا يمكن أن يكون تعزيةً .

فأومأ قائلاً :

ـ ربما . ولكنك ، إن لم تمت اليوم ، فلسوف تموتنَّ ذات يوم . وعندها يثار هذا الموضوع ذاته . فكيف تراك تواجه عندها تلك الساعة الأخيرة الرهيبة ؟

فأجبت أني أواجهها مثلما أواجهها الآن تماماً .

هنا نهض على قدميه ، ونظر باستقامة في عينيَّ . إنها لعبة أعرفها جيداً . كنت أتسلى بها دائماً مع عمانويل وسيليست ، وكانا تسع مرات من عشر يهربان من نظرتي في كثير من الضيق . وكنت أرى أن الكاهن يعرف هذه اللعبة أيضاً ، فلم يكن نظره ليرتجف . وكان صوته راسخ النبرة عندما قال :

ـ أليس لديك أمل على الإطلاق ؟ أتعتقد حقاً أنك عندما تموت تموت كلية ولا يبقى منك شيء ؟

فقلت :

ـ نعم .

خفض عينيه ، وجلس من جديد . قال إنه يرثي لي حقاً . إن الحياة لا يمكن أن تطاق بالنسبة إلى رجل يحمل مثل تفكيري هذا .

بدأ الكاهن يضجرني ، فأسندت كتفي إلى الجدار ، تحت الكوة الصغيرة ، ورميت بصري خارجاً . أدركت أنه يطرح عليَّ الأسئلة من غير أن أعيره أي انتباه . ولكن صوته بدا مهتاجاً ، عجولاً ، فتيقَّنت أنه منفعل ، فرحت أعيره سمعي قليلاً .

قال إنه يشعر أن استئنافي سيقبل ، ولكنني أحمل وزر جريمة ينبغـي أن أتخلص منها . لم تكن عدالة البشر في رأيه شيئاً ، لكن عدالة الله هي كل شيء . فأشرت إلى أن الأولى حكمت عليَّ . فوافق قائلاً أجل ، ولكنها لم تحررني من إثمي . وقلت له إني لم أكن أعرف أي «إثم» ، وكل ما أعرفه هو أني مذنب بالقتل . حسناً ، وأنا أدفع جزاء ذنبي ، وليس ثمة من يملك الحق في أن يتوقع مني أكثر من ذلك .

نهض عندئذ مرة أخرى ، فخطر لي أنه إذا أراد أن يتحرك في هذه الزنزانة الضيقة فليس أمامه سوى أحد حلين : أن يجلس أو يقف على قدميه . كنت أحدّق في الأرض ، فخطا صوبي خطوة واحدة ، وتوقف كمن لا يجرؤ على الاقتراب أكثر من ذلك . ثم مدَّ بصره من خلال قضبان الكوة إلى السماء .

قال في وقار :

ـ أنت مخطىء ، يا بنيَّ . ثمة أمور كثيرة يمكن أن تطلب منـك . وربما سيطلب منك .

ـ ماذا تقصد ؟

ـ قد يطلب منك أن ترى ...

ـ أرى ماذا ؟

نظر الكاهن حواليه في بطء ، فصعقني الحزن في صوته حين راح يتكلم من جديد :

ـ هذه الجدران الحجرية التي أعرفها جيداً ترشح بالألم البشري . ولم أكن أستطيع أن أنظر إليها دون أن أرتجف . ومع ذلك ـ صدقني ، فأنا أحدثك من أعماق قلبي ـ فأنا أعرف أن أكثركم بؤساً رأوا أحياناً وجهاً إلهيا يخرج من دكنتها . هذا هو الوجه الذي يطلب منك أن تراه .

أثارني ذلك قليلاً . فأخبرته أني ظللت أحدّق في هذه الجدران طوال شهور .

ولم يكن ثمة أحد ، أو شيء في هذا الوجود ، عرفته أفضل مما عرفتها . ربما كنت مرة ، منذ وقت طويل ، قد حاولت أن أبحث عن وجه أراه . ولكنه كان وجهاً له لون الذهب ولهب الشهوة ـ إنه وجه ماري . ولكنني لم أكن محظوظاً . فأنا لم أره ، وقد كففت الآن عن محاولتي . وفي الحقيقة أنني لم أرَ شيئاً «ينبثق» من تلك الحجارة الدكناء ، على حدِّ تعبيره .

حدّق الكاهن فيَّ في حزن . كنت قد استندت إلى الجدار والضوء يتدفق على جبهتي . غمغم بضع كلمات لم أفهمها . . . ثم سألني فجأة اذا كان في مقدوره أن يقبلني . قلت : «لا» . فاستدار ، وخطا إلى الجدار ، وأمرّ يده عليه في بطء .

سأل في صوت خفيض :

ـ أتراك تحب هذه الأمور الدنيوية إلى هذا الحدّ ؟

فما أعطيت جواباً .

ظلَّ طويلاً منصرفاً بنظره عني . كان وجوده ثقيل عليَّ أكثر فأكثر ، وكدت أن أطلب إليه الخروج ، وأن يتركني في سلام ، عندما استدار فجأة وانفجر صارخاً في حدة :

ـ كلا ، كلا ! أرفض أن أصدق ذلك . أنا واثق أنك تمنيت دائماً حياة في العالم الآخر .

قلت له إنه مصيب في رأيه . كل إنسان تمنى ذلك في وقت من الأوقات . ولكن هذا لم يكن أكثر أهمية من أن يتمنى المرء أن يكون غنياً ، أو سباحاً ماهراً ، أو أن يكون له فم جميل . كان هذا شيء من هذا القبيل . وكنت مستمراً في حديثي على هذا الغرار عندما قاطعني مستفسراً . كيف أتصور حياتي في العالم الآخر ؟

صحتُ في وجهه :

ـ حياة أستطيع فيها أن أتذكر حياتي هذه على الأرض . هذا كل ما أريد .
وقلت له بالنبرة ذاتها إنني سئمت وجوده .

كان لديه على ما يبدو ما يضيف عن الله . فاقتربت منه ، وحاولت للمرة الأخيرة أن أشرح له أن الوقت المتبقي لي في الحياة قصير جداً ، وأنني لا أريد اضاعته في موضوع الله .

حاول أن يغيّر الموضوع فسألني لماذا لم أناده مرة واحدة بكلمة «أبتاه» طالما أنه كاهن . فأثار ذلك أعصابي ، وأجبته أنه ليس أبي ، وأنه ، على عكس ذلك ، كان مع الجانب الآخر .

فقال ، وهو يضع يده على كتفي :

ـ كلا ، كلا ، يابنيّ ، إنني في جانبك ، رغم أنك لا تدرك ذلك ـ فقلبك أصمّ . ولكنني سأصلي من أجلك .

وإذّاك ، ولا أعرف كيف ، انفجر شيء في داخلي ، وشرعت أصيح بأعلى حنجرتي . شتمته ، وطلبت إليه ألا يضيع صلواته العفنة من أجلي . وأمسكت به من تلابيبه وقذفت في وجهه في موجة من الفرح والغضب كل ما كان يعتمل في ذهني . كان يلوح عليه أنه واثق أكثر مما ينبغي . ومع ذلك فإن أي يقين لديه لم يكن يساوي شعرة امرأة . بل هو لم يكن واثقاً من أنه يعيش طالما أنه يحيا كالميت . وكنت أبدو كما لو كانت يداي فارغتين . وفي الحقيقة فقد كنت واثقاً من نفسي ، من كل شيء ، أكثر منه هو . كنت واثقاً من حياتي الحاضرة ومن الموت الذي سيجيء . وكان هذا ، على ما يبدو ، كل ما لديَّ . ولكني كنت أستطيع على الأقل إمساك هذه الحقيقة بأسناني ـ بقدر ما كانت تمسك بي هي . كنت دائماً على حق ، ولا أزال على حق ، فأنا دائماً على حق . لقد صرفت حياتي على نحو ما ، وكان يمكن أن أصرفها على نحو آخر لو كنت أريد . لقد تصرّفت على هذا الغرار ، ولم أتصرف على ذلك . أنا لم أفعل

هذا ، بينا فعلت ذلك وتلك . فما معنى هذا ؟ معناه أني انتظرت طوال الوقت مجيء هذه اللحظة ، مجيء هذا الفجر ، فجر الغداة أو أي يوم آخر ، الذي يمكن أن يبرئني من الإثم . إن أي شيء ، أي شيء على الاطلاق ، معدوم القيمة ، وكنت أعرف جيداً لماذا . وكان ، هو ، يعرف ذلك أيضاً . فمن أفق مستقبلي الأسود كان ثمة نفحة ناعمة مستمرة من ريح تهبّ في اتجاهي ، طوال مدة حياتي ، عبر أعوام لم تطلّ على الوجود بعد . وكانت تلك الريح تسوّي في طريقها جميع الأفكار التي حاول الناس إيهامي بها في أعوام ليست أكثر واقعية من الأعوام التي كنت أعيشها . ماذا كان يهمني موت الآخرين ، أو حب الأم ، أو وجود الله ، أو الأسلوب الذي يختاره الإنسان في الحياة ، والقدر الذي يعتقد أنه يختاره ، طالما أن هذا القدر ذاته هو الذي كان «يختار» لا وجودي فحسب ، بل وجود آلاف الملايين من الناس المجدودين الذين يقولون ، مثله ، إنهم إخوتي ؟ أفلم يكن ينبغي عليه تماماً ، تماماً أن يفهم ؟ أن كل إنسان يعيش هو مجدود ، وهنالك صنف وحيد من الناس ، صنف المجدودين . وجميعهم محكوم عليهم بالموت في أحد هذه الأيام ، وسوف يجيء دوره ، هو الآخر ، مثل الآخرين . فماذا كان يهمّ إذن ، بعد أن يحكم عليه بالموت ، أن ينفذ هذا الحكم فيه لأنه لم يبك في جنازة أمه . طالما أن كل شيء يؤول إلى نتيجة واحدة في النهاية ؟ وهكذا كان مصير زوجة سالامانو ومصير كلبه . وكانت تلك الفتاة الغريبة مذنبة مثل تلك الفتاة الباريسية التي تزوجت ماسون ، ومثل ماري التي أرادت أن تتزوجني . ماذا كان يهم إن كان ريمون صديقي مثل سيليست الذي كان خيراً منه ؟ ماذا كان يهم لو أن ماري في هذه اللحظة تقبّل رجلاً آخر ؟ أفلم يكن يستطيع ، باعتباره محكوماً بالموت ، أن يدرك ما عنيت بتلك الريح السوداء التي تهب من مستقبلي ؟...

كنت أصيح بهذه الكلمات وأنا أختنق ، فأسرع الحرّاس وشرعوا يحاولون

انتزاع الكاهن من بين يديّ . وحاول أحدهم أن يضربني . فهدأهم الكاهن ، ورنا إليَّ لحظة في صمت . كنت أرى دموعاً في مقلتيه . ثم استدار وغادر الغرفة .

شعرت بالهدوء بعد ذهابه . لكن هذه الإثارة هدَّتني فارتميت متثاقلاً على أريكة نومي . ولا بدَّ أني استغرقت في النوم ، إذ لم أكد أفتح عينيَّ حتى رأيت النجوم تشعُّ علي وجهي . كانت أصوات خافتة تصل إلى سمعي من الضاحية ، وهواء الليل الرطب ، المشبع برائحة الأرض والملح ، يُروِّح وجنتي . وتدفقت في باطني طمأنينة ليل الصيف النائم مثل مدة من موج . ومن ثم ، عند حدود انبلاجة الفجر ، سمعت صوت صافرة باخرة . هؤلاء أناس يقومون برحلة إلى عالم لم يعد يهمني على الإطلاق إلى الأبد . وللمرة الأولى منذ أشهر عديدة فكرت في أمي . وهذا أنا يخيَّل إليَّ الآن أني أفهم لماذا اتخذت لها في نهاية حياتها «خطيباً» . ولماذا ادعت أنها تبدأ من جديد . هنالك ، أيضاً ، في ذلك المأوى الذي كانت فيه حيوات تنطفىء ، كان الغسق يجيء أشبه بسلوان كئيب . لابدَّ أن أمي ، والموت يقترب منها ، شعرت أنها أشبه بإنسان يقف عند حدود الحرية ، وأنه على أهبة أن يبدأ الحياة من جديد . ليس ثمة إنسان ، إنسان واحد في العالم ، كان يملك الحق في أن يبكي عليها . وأنا أيضاً أحسستني على أهبة أن أبدأ الحياة مرة أخرى . كان يبدو أن تلك الثورة العظيمة من الغضب غسلتني ، وأفرغتني من الأمل ، وفيما أنا أحدق في هذه السماء السوداء المرصعة بالعلامات والنجوم ، فأنا ، للمرة الأولى ، الأولى فقط ، ينفتح قلبي على لامبالاة العالم العذبة . وعندما شعرت بهذا العالم شبيهاً بي إلى هذه الدرجة ، أخوياً حقاً ، فقد أحسست أني كنت سعيداً ، وأني لا أبرح سعيداً . وكي يكتمل كل شيء ، وكي أشعر بأني أقل وحدة ، فقد كان عليَّ أن آمل أن يكون هنالك عدد كبير من الناس يوم تنفيذ الحكم فيَّ ، وأن يستقبلوني

بصيحات اللعنة والبغضاء .



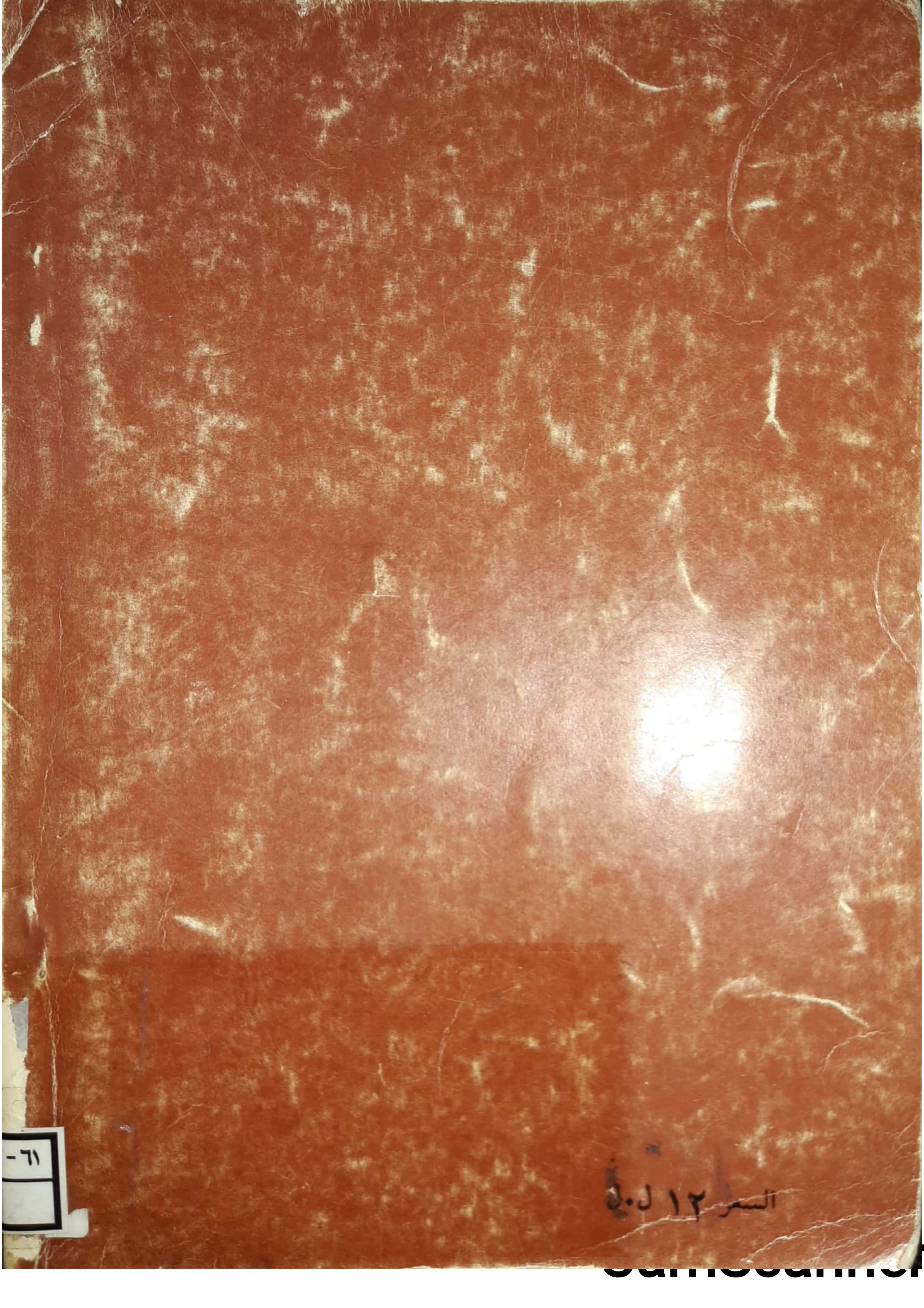
صدر في سلسلة الينابيع

فاوست للشاعر الألماني غوته

ترجمة المحامي سهيل أيوب

نذير العاصفة للكاتب الروسي مكسيم غوركي

ترجمة المحامي سهيل أيوب


السعر ١٢ ل.ل
٦١ -